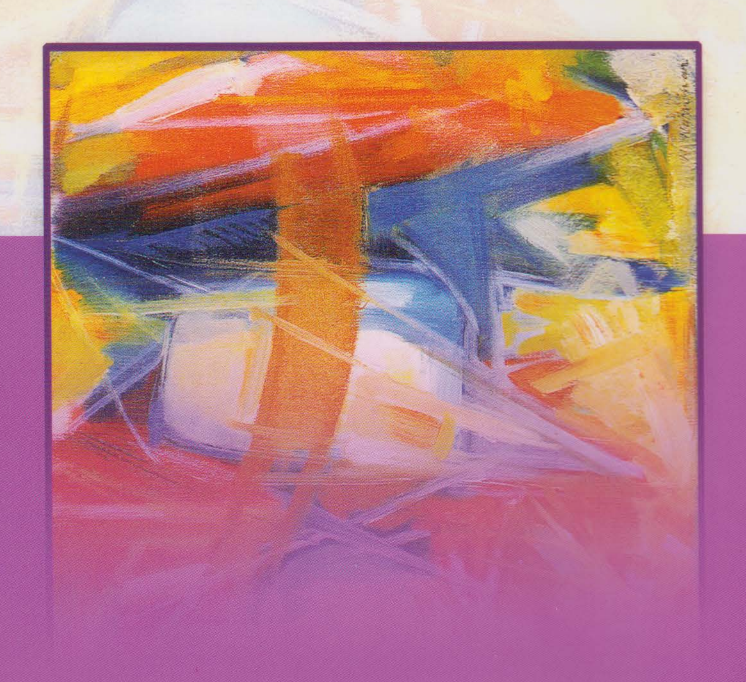
خولة القزويني

حديث الوسادة

مجموعة قصصيّة






مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق
في الكفة الأخرى لرجح إيمانه .
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com

حديث الوسادة

الطبعة الثانية

٢٠٠٨ م - ١٤٢٨هـ



للطباعة والنشر والتوزيع

بئر العبد - خلف محطة دياب

تلفاكس : (+9611) 27 49 42 - (+9611) 55 29 00

جوال : (+9613) 80 01 49 ص.ب : 25/91 بيروت - لبنان

E-mail : dar_asafwa@hotmail.com

خولة القزويني

حديث الوسادة

مجموعة قصصية


بيروت - لبنان


بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

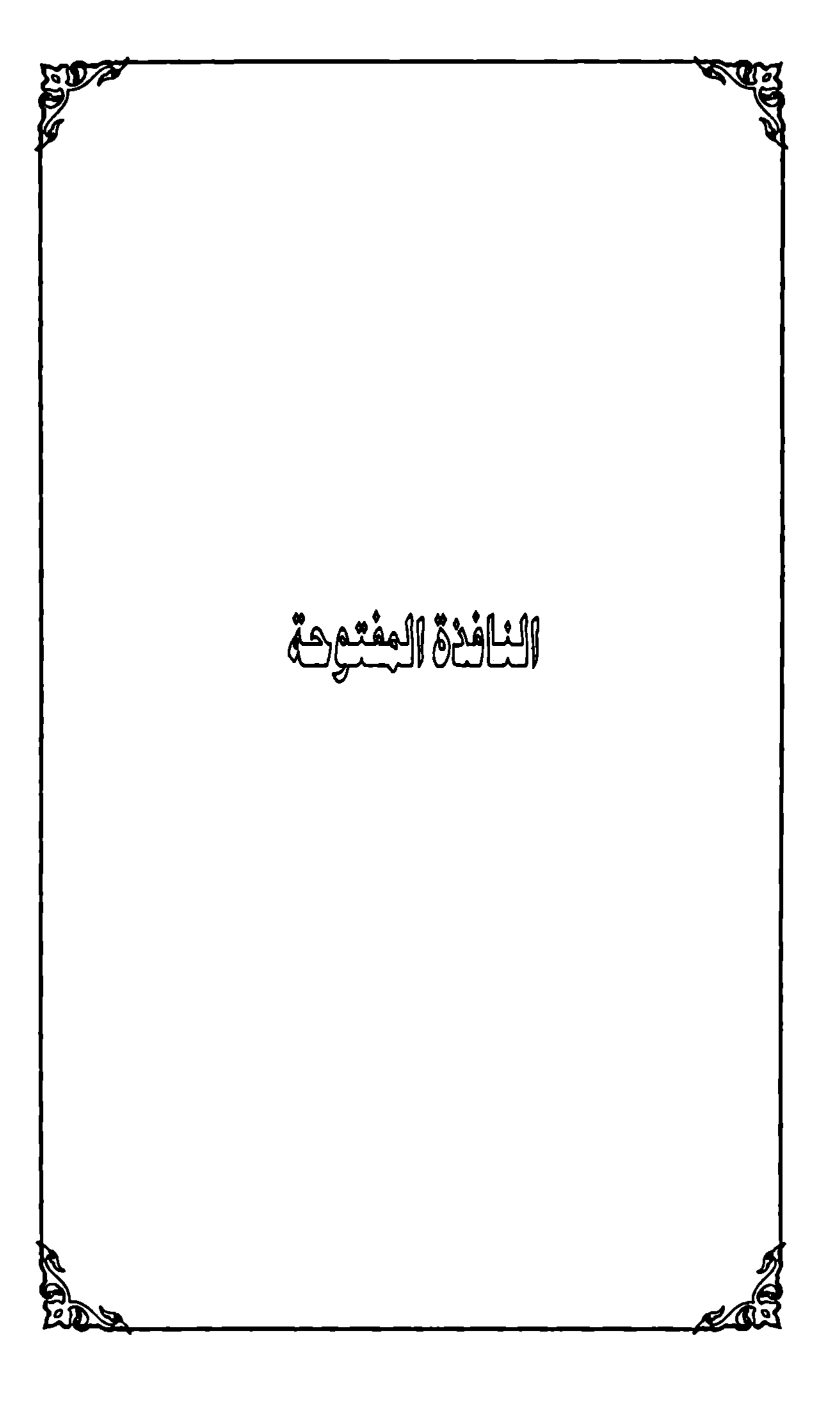
«إلى صديقة العمر . .

ونوّارة الطريق . .

وأختي في مشوار الحياة . .

فاتن العزيزة»

خولة القزويني



النافذة المفتوحة

المقدمة

تعتقد الزوجة دائماً أن الرجل حينما يكبر في السن تذوي مشاعره العاطفية وينطفىء بريق روحه الوهَّاجة الباحثة دائماً خلف الواقع عن أنفاس تلهج حِساً وتنبض حياةً، فتهمل عطاءها الإنساني المتوقد وتلهث خلف ماديات الحياة ورتابتها القاتلة، متخطية لحظات همس معطرة بشذى المحبة والحنان، وعندما تهمل الزوجة هذا الكيان المتأجج في أعماق الرجل تدفعه بشدة إلى تلك الروح التواقة إليه ليضمها في حناياه بين الضلوع، لأن الزمن قد استراح الآن في الذاكرة والقلب يشتعل نبضاً وترديداً ليقطف في طرقه ضالته المنشودة.. زهرة عمره.

فالزوجة الثانية ليست هي المشكلة إنما هي نتيجة طبيعية لحياة قاحلة يابسة، جافة، لا رواء فيها ولا حياة وعندما يجف النبع سيرحل هذا المخلوق إلى واحة خضراء ينهل من جداولها الرقراقة، ماء الحياة ويروي ظمأه ويحقق تطلعاته ويشبع نهم قدراته وكل طاقاته ورؤاه المتجددة!

الجزء الأول

سنوات طويلة مضت ودائرة الزمن تدور دورتها الرتيبة وتمضي حيث يتكون الحزن في زاوية عتيقة لا تلبث أن تتحول إلى تراث في معالم هذا البيت الكبير.

قارب الحاج عبد العزيز سنواته الستين، لكن ابتسامته المتوقدة تهزم الزمن المر وتكسب وجهه لوناً متورداً يضاحك ثغر الزهر الباسم، جبهته تتناغم غضونها في سيمفونية رائعة كأنها تعزف لوناً من الرجولة المتفجرة، ناهيك عن قامةٍ مديدة قاومت معاول الزمن ومطارق الأيام لم تنحنِ أو ينكسر لها غصن.

يستيقظ كل صباح في ساعة مبكرة ويتخذ لنفسه ركناً هادئاً قرب شجرة البرتقال التي تفرعت غصونها فأخذت تضرب زجاج النافذة، يضع كرسياً قرب هذه النافذة ومنضدة صغيرة من الخيزران أمامه ليقرأ جريدة الصباح ويشرب قهوته، ويرهف

سمعه إلى أصوات العصافير المغردة تتراقص فوق أغصان شجرة البرتقال وكأنها تسكب في شرايينه ينابيع من الأمل والأحلام حتى تشمل روحه، وتنتشي أوصاله. ثمة صرخة قادمة تخترق سمعه وتقطع عليه وحدته «مريم» زوجته المتذمرة تتلفت هنا وهناك تبحث عن شيء فقدته منذ سنين، خطواتها المهزوزة ولفتاتها المرتبكة، التفت إليها:

ـ ما بكِ يا مريم.

تأففت كعادتها:

ـ لقد نبهتك منذ الأمس أن لا تفتح النافذة فأوراق هذه الشجرة تتساقط داخل الغرفة، وأنا قد نظفتها بالأمس.

قاطعها:

ـ أريد أن أستمتع بهذا الصباح الجميل فلا تبخسي عليَّ هذه المتعة سأكنسها أنا فيما بعد.

حدجته بنظرة غاضبة

فأردف على الفور

ـ سأكنسها فيما بعد لا تنزعجي!

كانت تثير في نفسه إحساساً بالشفقة أحياناً، وأحياناً أخرى بالقرف، فقد عاشت حياتها بآلية صماء، فحاول أن يبعث في أعماقها الإحساس بالحياة لكن شيئاً في داخلها كان

يخرس هذه الأحاسيس ويحيلها إلى أرض جدباء مقفرة الأحاسيس. ثمة شيء يشده إلى تلك النافذة المفتوحة في ذلك البيت البسيط الذي يقف شامخاً أمام بيته، إنه دائماً ينتظر تلك المرأة الحسناء التي ترملت في عمر مبكر. كان يسمع الجارات وهن يتحدثن عنها بغيرة وحسد، فوجهها الضحوك وشعرها الأشقر الناعم الذي يدغدغ خديها الأسيلين، والزهرة الحمراء التي كانت تشبكها في شعرها تثير الغيرة والحقد في قلوبهن التي لا تعرف الرحمة، ولا عفة اللسان، هن لا يعرفن للحياة لوناً مبهجاً، كل شيء حولهن مثير للإزعاج يتساءلن بهمس ماكر «ما سر ضحكتها الدائمة وإشراقتها الحالمة وعذوبتها التي تخطف القلوب»!

في أعماقهن شيء من الإعجاب ولكن ثمة إحساس رافض لوجودها، إنها تجسد الأمنية الدفينة التي تختلج في أعماقهن لكنهن عجزن عن حب الحياة والتفاعل معها بعفوية. لقد ولَّدت هذه المرأة اضطراباً في سلوك تلك النسوة فرحن يصفنها بأبشع الأوصاف وقد بلغ إلى مسامعها كل هذه الأقاويل فلم تبالي ولم تهتم لمثل هذه الثرثرة والنميمة كان همها هو الحاج «عبد العزيز» الذي شده الفضول في أول الأمر ليعرف سر جارته التي أصبحت حديث الحي!

* * *

رشف الحاج عبد العزيز رشفة عميقة من فنجان قهوته

وعيناه تحدقان في وجهها الذي انسابت فوقه سحابة مضيئة أنعشت قلبه تحمل بيدها إبريقاً من الماء لتسقي أصيص الزهور، أحست بإضطراب مفرح ينبض في صدرها، حاولت أن تصده لتثير فضوله، إنها تعرف أنه في انتظار طلعتها كل صباح فلتجرب هذه المرة أسلوباً آخر، تجهمت ثم أشاحت بوجهها وأقفلت النافذة، فسعل بقوة بخيبة أمل، حتى العصافير خاصمته فلم تزقزق كعادتها ومرارة القهوة لسعت لسانه، كأن للعاطفة عصا سحرية تحول كل الكائنات إلى لوحة رائعة تجسد طعم الحياة ونكهتها الحلوة، حتى اللون الأسود يتحول في عيني المحب إلى ألوان زاهية تخترق الأوصال فتمدها بالعطاء المثمر.

جاءت مريم كعادتها ومسحة الغضب مرتسمة على وجهها المتشنج دائماً

ـ أما زلت جالساً هنا؟!

رد عليها بغضب

ـ وما الضير في ذلك؟

شدت نفساً عميقاً:

ـ أريد أن. . .

قاطعها:

ـ قلت لكِ سأكنس وأرتب كل شيء لا تعترضي طريقي وتسلبيني راحتي أرجوكِ.

تأففت في تذمر:

ـ ماذا تحب أن تتناول على الغذاء؟

حدجها بنظرة مقرفة

ـ أي شيء حتى لو كان سُماً!

صرخت: ما بك غاضباً!

ـ أرجوكِ اغربي عن وجهي إني بحاجة إلى السكون والهدوء.

ثمة عينان ترقبان تلك الملامح المتجمدة في وجه عبد العزيز، وابتسامة لذيذة تسري في عروقها، فأماني أصبحت أنشودة عذبة تغرد لهذا الشيخ كل صباح وتود لو تحدثه عن خواطرها الذاتية في وحدتها الموحشة، فلم ترزق بأطفال والبيت الكبير الذي تسكنه ولَّد في قلبها شعوراً بالغربة، فقد سمعت هي الأخرى عن الحاج عبد العزيز وروحه المرحة وشهامته التي تجسدت في قصص ومواقف عاشها طوال حياته، ثم رجولته المتدفقة في عروقه كسيل هادر بالمعاني الصادقة فهو رجل مخلص وصادق تتمناه في قرارة نفسها وتحسد تلك العجوز التي تسكن في بيته فتبدو وكأنها شبح ميت، قامتها

النحيلة وجلدها المتغضن يحاكي سطور الزمن المُر وقسوة الملامح الصارمة التي تذكرنا بعبوس العساكر وهم في طريقهم إلى المعركة. فهي تكوين غريب يشاكس أحاسيس الأنوثة التي تجتذب الرجال روحاً جف النبع فيها فتمادت بالجفاف حتى زهدها ذلك الرجل المتوقد بالشباب، لعلَّه المسكين يسامر العصافير، وريقات الشجر الخضراء، يتطفل بعينين ساهمتين أوقد الدهر فيهما نوراً هادئاً بوعي منه أو دون وعي ناحية أخرى أروع حساً وأعذب نبضاً تلك النافذة المفتوحة التي تود أن تضمه بحنان، تود لو تفعل شيئاً فنظراته التائهة في الأثير تنعش قلبها وتدغدغ أحاسيسها، بل ولدت في صدرها تدفقاً شعورياً حالماً لا تستطيع أن تقاومه، أحياناً كثيرة تشفق عليه، إذ يداهمها احساس بالشفقة عليه لأنه يكاد ينفجر غيظاً لفرط كبته وصبره على حياته القاسية، فلم يفعل ما يهين زوجته أو يخاصمها، بل كان يقابل تشنجها بابتسامة، ويحتوي انفعالها بحنانه لكنها جفت أكثر من ذي قبل وحولت حياتهما إلى واجبات رتيبة وحقوق عقيمة تهزم فرحته الطارئة وتحسسه أنه قد شاخ وكبر وأولاده قد تزوجوا وليس هناك أي داعٍ لمحاولة جديدة في ترطيب الحياة، فللإنسان حقبة محددة للنزهة في رحاب الدنيا الواسعة، الآن نحن محاطان بسياج العمر الكبير وإطار الزمن المر الذي يفرض علينا قوالب إجتماعية قد تشكلت بفعل التقاليد الموروثة، لكنها لا تفهم تلك الحاجة

الملحة في قلبه، وعطش روحه إلى الحنان والاحتواء فنداء العاطفة لا يرحم وسياط الوحدة تلهب النفس وجعاً، لكنها تنكر تلك المشاعر وتختزل الرغبة الطبيعية في دمه. قاسية هذه المرأة منذ أن تزوجها وحياته عبارة عن دوامة قاسية تهشم محطات الترقب حينما تنعش الذاكرة بفيض الآمال ربما احتمل في صباه ما يمكن دفعه بالعمل وتبديد الطاقة في تربية الأبناء ومخالطة الشباب، الآن العمر يخلد إلى الراحة، وإن خطف الزمان تلك اللحظات وأودعها في جلده المتماسك وطياته المشدودة فالآن هدأت تلك الدَوامة والساقية الساكنة تمور بعد ذلك الخضوع القسري لتصرخ صرخة الحياة الصاخبة، لتتفتح براعم روحه من جديد لتستنشق الهواء العليل وعبير الزهور ودفء العاطفة، فالحاج عبد العزيز رغم صرامته وقوته ورجولته ففي داخله انسان مرهف حساس عاطفي ينضح بالشاعرية والرومانسية، فشبابه المتورد بالطموح قد تحول في هذا العمر الخريفي إلى نزهة في خاطر يستمرىء لحظاتها، فرغم تساقط الأوراق إلا أن هناك أملاً جديداً في أن تتبرعم الأغصان من جديد وتنبت فوقها الوريقات الخضراء لتمتد الأنفاس عبر تطلعات وآمال جديدة تزدهر بها حياته.

***

تنهدت أماني وهي تلمح عبد العزيز منحنياً يكنس فناء المنزل وحمرة وجهه تكسوها طبقة من الغبار، امتعضت تود لو

تزيح هذا الجدار الواقف بينهما وتصفع وجه العجوز الجدباء لقد استطاعت أماني بوسائلها الخاصة أن تعرف سر عزوف هذه العجوز عن طلب خادمة، فهي امرأة موسوسة بداء النظافة تكره أن تلمس الخادمة أي جزء في البيت، وجودهن ـ أي الخادمات ـ يشكك في قدرتها على العطاء! وحاول عبد العزيز أن يقنعها بضرورة وجود خادمة فهاجت وماجت حتى استسلم لرغبتها.

حزنت أماني تحدث نفسها قائلة «فليمنحك الله الصحة والعافية يا عبد العزيز فأنت رجل شامخ لا ينبغي لك أن تنحني. . الإنحناء ليس لك يا عزيزي، ليتني أحمل المكنسة عنك وأضعك في عينيّ. . هذه الحمقاء لا تقدرك».

عضت أماني شفتيها في غيظ أقفلت النافذة لتعود إلى المطبخ، بينما نفض عبد العزيز كفيه من الغبار وعاد أدراجه، اصطدم بزوجته وقد ابتسمت ابتسامتها الباهتة.

ـ لقد أرهقت نفسك بما فيه الكفاية فلا داعي بعد اليوم للجلوس في الحديقة إلى وقت متأخر، إذهب إلى أصحابك، إفعل شيئاً مفيداً، لماذا تضيِّع وقتك؟!

صم أذنيه باصبعيه في نرفزة:

ـ يا إمرأة، هل أصبحت عالة عليك أو مخلوقاً تافهاً أليس من حقي الاستمتاع بالطبيعة والمياه والهواء النقي كل صباح،

إذا كان قلبك صخراً فقلبي واحة خضراء لا تزدهر إلا هناك فلا تزاحميني أرجوك لقد صبرت عليكِ بما فيه الكفاية!

طأطأت رأسها وهي تحبس أنفاسها ثم قالت:

ـ أنت حر إفعل ما تشاء سئمت من نصحك.

رمقها بنظرة ساخرة:

ـ لم أكبر إلى هذا الحد الذي تسلبيني فيه حتى خياراتي وقناعاتي.

تمتمت بصوت متحشرج تشم منه رائحة اليأس والاكتئاب ثم قالت بتهكم:

ـ نعم، نعم، ما زلت شاباً طرياً تستطيع أن تعتمد على نفسك!

أشار إليه بسبابته مستفزاً حانقاً:

ـ شاباً رغماً عنكِ أيتها العجوز الشمطاء

حاولت أن تكتم غيظها وافتعلت البلادة

ـ أنا عجوز أعترف بذلك، ولا أدَّعي الصبا فلكل عمر طعمه.

سخر منها:

ـ أنتِ عجوز بالفطرة منذ أن تزوجتك صبية وروح

العجائز تسكنكِ في تصرفاتكِ ولباسكِ وتكشيرتكِ المقرفة.

إنتفضت منبهرة:

ـ عبد العزيز! لقد تغيرتْ، كنت لا ترد عليَّ عندما اغضبك، أراك الآن على غير عادتك، لعلّ هناك من أثارك ضدي.

حدجها بنظرة ساخرة وهو يهم بالإنصراف

ـ شتان ما بين الثرا والثريا

جلست مريم على حافة السرير تبكي تضم الوسادة إلى صدرها، وتذرف دموعها حبيسة قد تحجرت في قلبها منذ زمن طويل، لقد تغير عبد العزيز في الفترة الأخيرة أصبح يهينني، يغضب لأتفه الأسباب، يثور في وجهي كلّما زل لساني بكلمة غير مقصودة ما الذي أصابه؟ سرحت مريم بتفكيرها إلى أبعد الحدود لا بد من محاولة جادة لفهم الأمر برمته.. الوضع عسير صعب عليّ احتماله فلأذهب لأم خليل العرَّافة كما نصحتني صاحبتي أم خالد، لعلَّها تطلعني على غيبيات الأمور وخفايا الأشياء!

الجزء الثاني

استيقظت مريم هذا الصباح بوجه ضامر الملامح قد تغضن أكثر من أي وقت آخر فبدت وكأنها تشمر عن ساعديها لمشادة ساخنة تضمن فيها بقايا جراحها جلست في ركن هادىء تفكر كيف تغيظ عبد العزيز فقررت عدم تحضير قهوته الصباحية كعادتها، وقفت سامدة تتمتم في سرِّها لقد تأخر عن الاستيقاظ. شرعت تذهب الأرض جيئة وذهاباً والغيظ يزفر مع أنفساها اللاهثة.. استبد بها القلب «إنه لم ينهض كعادته مبكراً، ماذا حدث له؟ تناهى إلى سمعها سعاله الشديد وأنينه الخافت فمنذ سنوات وهما ينامان في غرفتين متجاورتين ذهبت إليه تجر خطواتٍ ثقيلة وقلباً مثقلاً بالهموم وإيماءات يشحذها كبرياء مطعون. انتبهت إليه مفزوعة فوجهه بدا محتقناً بلون أحمر قاتم وعيناه ذابلتان، بذل جهداً مضنياً في محاولة التحديق بها اقتربت منه في تأنٍ لمسته وتحسست وجهه خبطت على صدرها «أنت محموم جداً لا بد من استدعاء طبيب» حاول أن

يتكلم لكن السعال كان يكبت أنفاسه ويغرقها في حشرجات متقطعة اتصلت بالطبيب وهي ترتجف من الخوف ولسعة الضمير تتوارى من شفقة دفينة على زوجها، هذا الرجل الطيب الذي أحسن معاملتها طوال هذه السنين كانت تضمر له في نفسها نية شريرة.

جلست القرفصاء والحيرة تهزها من الأعماق.

عبد العزيز تألم كثيراً عندما قست عليه الجارة في بعدها عنه طوال هذه الأيام، فسعادته في الدنيا إطلالتها الحنون، ووجهها المشرق الذي يتغنى بألوان الحياة المدهشة. ثم ابتسامتها العذبة التي أعطت لحياته نكهة جديدة، منذ أن قررت مخاصمته وهو يتعذب تقتله الظنون والوساوس فعافت نفسه الطعام والشراب تأسره التساؤلات الكثيرة «أين ذهبت»؟ «هل رحلت»؟ قد عقد على هذه المرأة الآمال الكثيرة.

وأماني لم تكن تفكر إلا في مصير هذا التناغم الوهمي الذي يعربد في حياتها فخلق في نفسها شيئاً من الإضطراب، فهو لم يتصرف بما يعود عليها بالاستقرار، ولم يقدر ما سيحصل بعد هذه النافذة المفتوحة كل يوم، وهي شابة جميلة تبحث عن زواج وسكن نفسي، وخُيل لها أكثر من مرة أنها ربما ستكون زوجة بيد أن الواقع الذي تراه كل يوم يطوِّح كل هذه الأمنيات، فهذه المرأة العقربة المسماة مريم تحفر في حياته العثرات وتنهش في قلبه ليضطرب لهذا تراه دائماً منكمشاً على

نفسه رغم حبه للحياة، فكيف السبيل إلى هذه الغاية المنشودة؟! ولهذا قررت أخيراً أن تضع حداً لهذا العبث، بينما عبد العزيز يتلوع في وحدته القاسية، هذا الخيط الشفاف الذي يربطه بأماني يفتح آفاقاً موعودةً في حياته. فقد تبرعم قلبه الأخضر بدمٍ متجدد يسقي روحه بينابيع الأمل تبعثها هذه المرأة في حياته، وكان قد استقر في خاطره أن يتودد إليها أكثر ليتخذها زوجة له، ولكنه يخشى من عاقبة هذا الأمر وأيقن أنه ينتظر منها نوعاً من التجاوب ليستوثق من قراره.

جاء الطبيب وأجرى له كشفاً شاملاً ثم وصف له العلاج المناسب قائلاً له: «أنت مجهد كثيراً وتحتاج إلى راحة، ربما صحتك النفسية ليست على ما يرام ويستحسن تناول هذا العلاج وهذه المجموعة من الفيتامينات حاول أن ترقد في سريرك لبضعة أيام».

كانت مريم تقف خلف الباب تلتقط كلمات الطبيب وفور أن خرج واجهته بشيء من النرفزة قائلة «ما سبب تعبه النفسي، إني أوفر له كل احتياجاته ولم أقصر بشيء، فطعامه وشرابه وراحته من أولويات اهتمامي».

ابتسم الطبيب وهو يحدق بها طويلاً وعرف سر مرض عبد العزيز!

ـ عزيزتي الحاجات النفسية للرجل أعمق من حاجته إلى

الطعام والشراب، ربما يعاني من وحدة، من اغتراب لم تتفهمي مشاعره!

ودون أن يلتفت إليها انصرف والشفقة بادية على ملامحه للحالة التي وصل إليها عبد العزيز.

***

انتشر الخبر في أرجاء الحي وراح الأهل والجيران يتوافدون على منزل الحاج عبد العزيز في زيارات متواصلة يحملون له باقات الورد وعلب الحلوى. وبلغ إلى سمع أماني هذا الخبر وحزنت حزناً شديداً وراحت تتمتم في سرها «عبد العزيز الرجل الطيب راقد في الفراش لا بد من زيارته والاطمئنان عليه «نهضت من مكانها لتصنع له قالباً من الحلوى مطعماً بالهيل والزعفران، ثم قطعت من أصيصها بعضاً من الزهور لتضمها في باقة جميلة حتى تسرع لزيارته، وقبل أن تخرج استوثقت من ثيابها المتناسقة فصففت شعرها ثم ارتدت عباءتها وطارت كالنسيم العليل إلى جارها المريض، وهناك استقبلتها مريم بوجه متجهم، وبأنفاس مبهورة فنور أماني وطلعتها المشرقة أثار حفيظة مريم وبعث في نفسها غيرة عميقة.

فأماني أجمل امرأة بالحي بل أصبحت حديث كل الناس. وبالرغم من جمالها الباهر وطلعتها البهية، فقد لازمت بيتها

ولـم تغادره إلا للضرورة بعد وفاة زوجها، وبلهفة مشتاقة خطت أماني خطوات مرتبكة ناحية الغرفة التي يرقد فيها عبد العزيز وبقلب يلهث ومشاعر مضطربة وقع نظرها على وجه عبد العزيز الذابل فارتعد هو الآخر وتلعثم لا يدري ما يقول أومأ إليها بالجلوس قبل أن تنطق بأي حرف ازدرد ريقه، تفضلي يا أماني، شرب كوب الماء ويداه ترتجفان، إنها مفاجأة سارة لم يتوقع مثلها أبداً، أخذت أماني نفساً عميقاً ثم قدمت له باقة الورد وطبق الحلوى قائلة:

ـ الحمد لله على سلامتك يا جاري الطيب.

كانت مريم تقف عند الباب تحملق فيهما بعينين حادتين ثم دخلت لتأخذ طبق الحلوى وهي تردف بأسف.

ـ أشكرك على هذه الهدية.

أخذت الطبق وغادرت الغرفة فصاح بها عبد العزيز

ـ مريم! أعدّي لنا فنجانين من القهوة.

بتأفف

ـ حاضر، حاضر.

والتقت عيناهما في عتاب وشوق وكأن الصمت أبلغ من لغة الكلام استجمع شجاعته وقال:

ـ أماني عزيزتي أين كنتِ طيلة هذه الأيام؟

طأطأت أماني بوجهها أرضاً هامسة بحزن:

ـ وما فائدة كل هذا العذاب؟!

نهض عبد العزيز منتفضاً وشعر بحيويته تتدفق في عروقه فاستطرد سعيداً:

ـ يعني أنكِ تحبيني وتبادليني نفس المشاعر.

هزت رأسها بالإيجاب وحمرة الخجل تصبغ وجهها فتزيدها جمالاً

ـ أجل، أجل يا عزيزي، وقد قلقت عليك فعزمت على زيارتك.

ابتسم عبد العزيز وغمامة المرض تنقشع عن وجهه

ـ سأرقد كل يوم في الفراش لأحظى برؤياك، سأتناول طبقك لعلّ فيه شفائي وسأحاكي كل يوم هذه الزهور الجميلة لأنها تذكرني بإطلالتك.

تنهدت بعمق لتقول:

ـ كلامك يعذبني كثيراً.

اعتدل في جلسته وقدم إليها بعض حبات الشوكولا.

فتناولتها وهي صامتة.

قال لها بعد تردد:

ـ أماني إني أرغب في الزواج منك.

ذهلت، تجمدت في مكانها، فاغرورقت عيناها بالدموع وخفقات قلبها تصعد وتهبط لا تستطيع أن تتمالك نفسها ووقع الخبر المفاجىء يربك كل هواجسها فالزواج حلم عمرها، لقد تأكدت الآن أن الحاج عبد العزيز رجل قول وفعل كما سمعت عنه، رجل شهم، فهو لم يكن يتسلى برؤياها أو يتغزل بجمالها فهي بالنسبة له الزوجة والعش الهادىء الذي يتوق العيش فيه حتى آخر عمره.. تمنت في هذه اللحظة لو تحضن العالم بين ذراعيها وتعلن لكل الناس أنها ستحظى بأعظم رجل في الدنيا حتى لو كان في عمر أبيها، المهم هو شخصيته الآسرة التي قدرتها قبل أن تعرفها، هذا هو حلم حياتها، إنها ستتربع على عرش قلبه وتضمه بين الأحداق وفي الحنايا، ستجعل من حياته جنة وارفة الظلال، ستهبه السعادة التي طالما حلم بها.

دخلت مريم وهي تحمل صينية القهوة، فحدقت في وجه أماني لتجدها غارقة في الدموع قطبت حاجبيها متسائلة في حنق:

ـ ما بكِ تبكين؟

مسحت أماني دموعها متلعثمة لتدفع عنها الحرج قائلة:

ـ لا شيء كان الحاج عبد العزيز يسألني عن زوجي

فتذكرته ورغماً عني سالت دموعي.

لم يكن هذا العذر مقنعاً للحاجة مريم إذ جلست معهما لتشرب القهوة وأحست أن زوجها يطيل النظر إلى أماني فقطعت صمتهما

ـ أظن أن أماني في عمر ابنتنا زينب.

هز الحاج عبد العزيز رأسه بالإيجاب.

ـ تقريباً.

ثم التفتت مريم إلى أماني متسائلة:

ـ لماذا لم تنجبي من زوجكِ مع أنكِ عشتِ معه أربع سنوات، هل أنت مريضة؟

أحست أماني بالحرج، لكنها تماسكت وقالت:

ـ إنه أمر بيد الله سبحانه لم يكتب لنا الإنجاب.

وعادت تسألها:

ـ وهل من المعقول أن تسكني وحدك في هذا البيت، لماذا لا تذهبي إلى أهلك أو أي أحد من أقاربك؟!

أجابت أماني مغتاظة:

ـ أنت تعرفين أن أمي قد تزوجت رجلاً آخر بعد وفاة أبي، وكل الذين أعرفهم لا تصلح ظروفهم للسكنى معهم.

كانت مريم تحاول أن تضيق على أماني الخناق لترغمها على مغادرة البيت فسألتها مرة أخرى:

ـ ألا تعلمين أن الناس تتحدث عنكِ بما لا يليق بسمعتكِ!

هنا أحست أماني بلسعة في صدرها، فعافت قهوتها وهي حانقة، تشعر بالمهانة فاستطردت بعد تحديق طويل بوجه عبد العزيز:

ـ لا تقلق يا عزيزي ستقوم بالسلامة وستشفى بإذن الله، مع السلامة.

وهربت أماني وأذيال عباءتها تخبط الجدران، تهرول كأن مارداً أرعناً يلاحقها، تود لو تضرب هذه العجوز، لكنها حرصت على صحة عبد العزيز ومشاعره، وقالت مريم وهي تودعها عند الباب

ـ أرجو المعذرة يا عزيزتي لم أقصد لكِ إلا الخير.

فإبتسمت أماني ساخرة.

ـ نعم وهذا الخير يتلألأ في وجه عبد العزيز، فليرحم الله هذا المسكين.

صفقت مريم الباب وراءها بعصبية تنفخ الغيظ فحيحاً في أنفاسها الساخنة.

سمعت عبد العزيز يؤنبها بغضب

ـ أيتها الحمقاء لقد أخطأت الظنون وأسأتِ التصرف.

زمجرت محتدة:

ـ ماذا تريدني أن أفعل لها، هذه المعتوهة الساحرة التي عافها كل الحي لأنها تعمل السحر للرجال فتبعدهم عن زوجاتهم، جاءت إليك تحمل سماً لتدسه في صدرك حتى تكرهني وهذا الطبق الذي تدفن في طياته أعمالها الخبيثة لتفعل فعلتها وتهرب.

صرخ عبد العزيز:

ـ حرام عليك، حرام كل هذا الافتراء، إنها امرأة مسكينة لم تقصد إيذاء أحد، لكن الناس لا يخافون الله ويلوكون بألسنتهم أعراض غيرهم دون رحمة.

قاطعته مريم وهي ما زالت محتدة:

ـ لماذا تتعاطف معها، هل كذبت عليك بدموع التماسيح لتذيب قلبك هذه الأفعى الماكرة؟

أثارت غيظه ثانية فصرخ:

ـ إخرسي واخسئي لا أحب أن أسمع ما يسيء إليها هاتي إليَّ طبقها لأتناول منه بعض الحلوى.

ضحكت متهكمة.

ـ طبقها الآن في سلة المهملات.

استشاط غيظاً وأوشك أن ينهض ليضربها لكنه تماسك، فحمل قدح الماء الذي بجانبه ورماه على الحائط ثائراً.

اغربي عن وجهي أيتها العجوز الخبيثة.

ارتعدت في مكانها سامدة لا تصدق ما حدث لزوجها، أفزعها الإناء المكسور والماء الذي انسكب على السجادة، حاولت أن تهدىء من روعه، خشيت من عاقبة تصرفاتها إنها لم تره بمثل هذا الحال، لا تعرف كم هي أخطأت في حقه طوال السنين التي مضت وما يحدث الآن هو انفجار التراكمات المكتومة في قلبه، ناهيك عن صدها المستمر لهذه النسمة الرطبة التي تهب في حياته الجافة.

أشار إليها وهو في قمة غضبه:

ـ إسمعي هذه المرأة التي أهنتيها ستكون زوجتي عمَّا قريب وإن تكلمتِ ثانية فسأطلقكِ.. واذهبي لاحدى بناتك لتعيشي معها وقد أعذر من أنذر.

***

ذهبت مريم إلى غرفتها وهي تجر أذيال الخيبة والحسرة والندامة، فابنتيها لا تكترثان بها لأنهما مشغولتان باسرتيهما

وحياتهما المزحومة فضلاً عن سلبيتهما المتأصلة فيهما منذ الطفولة. بكت مريم وأسرفت في البكاء بل اختنق صدرها بشيء من اللوعة إنها أحست بالمهانة شيء لم تكن تتوقعه أو تحسب له حساباً، كانت تظن أن عبد العزيز قد تعطل عن الحياة وهرب العمر من بين يديه وسيحيا معها في هذه الدوامة العتيقة التي اعتادت على رتابتها وعنادها إنه مازال طرياً يحمل في قلبه حباً عظيماً للحياة، هذا الرجل العنيد لا تهزمه المصاعب والعثرات، فهو الغالب لا المغلوب، والمنتصر الذي يعلو لا الهارب الذليل، ويكفر بالذين يتخذون أسلوباً متعرجاً ملتوياً، وقد احتمل بما يستطيع أن تطيقه الجبال، لكنه الآن يفتح خزانة مقفلة تحمل العمر خصباً بالمسرات ويفجرها في وجه الزمن العبوس، إنه دائماً يصارع ويتحدى وكل مواقفه هادفة تستحق الاحترام، بينما بقيت مريم ضئيلة أمامه، باسلوبها الفظ ورغبتها الحمقاء في السيطرة عليه. لم تفهمه أبداً ولم تعرف إلى قلبه طريقاً حتى زهدها وعاش معها دهراً من الصبر والتكتم، فهيَ مفروضة عليه منذ الصغر لأنها ابنة عمه الوحيدة، وقد اتفق والديهما على تزويجهما حتى لا تتسرب الثروة خارجَ العائلة، وهي تكبره بخمس سنوات.

ومنذ اللقاء الأول كان الطريق متعثراً والمشاعر متنافرة، لتصبح المسيرة قاحلة خالية من الحب والرواء، فمشيا معاً في

طريق وعر يكابدان عبء الحياة وإن تقاربت أجسادهما تحت سقف واحد، وضمهما عش واحد فالروحين متخاصمتين لا تضمهما رحمة، ولا تجمعهما مودة.

الجزء الثالث

تركت مريم بيتها هذا الصباح لتلتقي بأم خالد حتى إذا شاهدتها ضمتها بحزن ووهن قائلة :

ـ إلحقيني يا أم خالد فقد قرر الحاج عبد العزيز الزواج من هذه الجارة المشؤومة أماني .

خبطت أم خالد صدرها مذهولة مطرقة كأن على رأسها الطير .

ـ لا أصدق ما أسمع .

وتشد مريم على كلماتها في حنق :

ـ بل صدقي سيفعلها وإن اعترضت سيطلقني ، وأنا جئت إليك اليوم لنسرع في حل الموضوع .

أومأت إليها أم خالد :

ـ إجلسي نتناول الفطور معاً ثم نذهب إلى أم خليل لتبطل

لنا سحر هذه المرأة.

ضربت مريم كفاً بكف مغتاظة:

ـ سأحطم هذه المرأة، مالها وزوجي فهي في عمر ابنته، لما لا تبحث لها عن عريس شاب يليق بها؟

أجابتها أم خالد وهي تصب الشاي في الأكواب:

ـ لقد خطبها الكثير من الرجال لكنها كانت ترفض دائماً.

صاحت مريم:

ـ ربما كانت تغازل زوجي لتوقعه في الفخ، إنها تخطط منذ زمن بعيد لعلَّها عرفت أنه رجل ثري فرمت شباكها عليه.

سألتها أم خالد

ـ وهل هو يحبها؟

ـ إنه مغرم بها، كاد أن يأكلها بنظراته الفاحصة، لقد جاءت وهي تحمل له طبق الحلوى وباقة الزهور.

فزعت أم خالد وكأن شيئاً قد لدغها:

ـ وهل أعطيته شيئاً منها؟!

وبثقة حمقاء تجيبها مريم

ـ بل رميتها في المزبلة خشيت أن يأكل من الحلوى،

لعلَّها كانت تضع بعضاً من السحر في هذا الطعام وخشيت أن يحدث ما لا يحمد عقباه.

تنهدت أم خالد قائلة:

ـ حسناً فعلت.

وتناولا الفطور على عجل لتذهبا إلى أم خليل، تلك المرأة التي تقرأ الفنجان لنساء الحي، وتعمل بعضاً من الأعشاب للمرضى، وتفك السحر، وتقرأ الودع لتطلعهن على غيبيات الأمور، فهي كما أطلقن عليها المعجزة! وقد وصلت أم خليل إلى قمة الثراء بفضل غباء النساء وحماقتهن واعتقادهن بخرافات لا تسمن ولا تغني من جوع.

ووقفتا قبالتها مذعورتان، مرتبكتان لتقول مريم:

ـ عجلي في الودع يا عزيزتي ولكِ كل ما تريدين

قدمت لها أم خليل محارة بيضاء وقالت لها

ـ أعقدي النية

وبلهفة أخذت مريم «المحارة»، ونوت لزوجها تلك النية التي ظنتها القدر المحتوم ولن يتصرف إلا بمشيئة «أم خليل»!

رمت أم خليل أصدافاً وتأملت بحذر، بل أطالت النظر حتى قالت:

ـ زوجكِ مسحور قد تجدينه عصبياً، ضعيفاً، وهناً، لا

يحب البقاء في البيت.

ثم حدجتها بنظرة فاحصة وكأنها تستمرىء الكأس على مهل، لتشعر أنها وصلت إلى المرام، كانت مريم تتفاعل بعينيها وأذنيها وحواسها، وكانت تؤكد دون أن تهمس ببنت شفه إن هذا هو الواقع الذي أحسه عن قرب.

مضت أم خليل في حديثها:

ـ هناك إمرأة تطمع في زوجك، في ثرائه وتكيد لك من حيث لا تعلمين وإن لم تعجلي بإبطال السحر هذا فستخرب هذه المرأة بيتك وتخسرين كل شيء.

اقتربت مريم من أم خليل وهي تبتلع ريقها ثم تستعطفها بحنان وذل:

ـ أرجوكِ يا أم خليل إفعلي أي شيء لإبطال السحر وسأعطيك المبلغ الذي تطلبينه.

كفت أم خليل عن الكلام وقدمت لها بعضاً من الوريقات قائلة:

ـ هذه ثلاث ورقات في كل مساء بخُري غرفته ولمدة ثلاثة أيام ثم عودي إليّ ثانية لأعطيك ماءً مقروءاً حتى يشربه الحاج عبد العزيز.

تهللت أسارير مريم، كأن الدنيا أقبلت عليها من جديد

فأخذت الوريقات وهي تدفع لأم خليل خمسين ديناراً لتغادر المكان، وهما تتحدثان عن أعجوبة أم خليل وقوة بصيرتها في معرفة كوامن الأشياء وصدقها في تنبؤاتها الغريبة إنها حقاً بلسماً يشفي الجروح؟

* * *

كانت أماني تشعر بالقلق وهي تحدق بالبعيد عبر النافذة، وتشرد ببصرها نحو طريق مجهول قررت أن تسير فيه دون تردد فما كانت ترجوه من الحاج عبد العزيز يفوق أحاسيس الحب والخيال فقد توسمت فيه قوة الشخصية وحنان الأبوة ودفء الزوج فهي إمرأة ضعيفة تعصف بها أعاصير الحياة وقد رأت في هذا الرجل الاحتواء الكامل الذي تتوقه لتعزيز موقفها إجتماعياً ونفسياً وهي تترقب الآن اللحظة المناسبة لدخول الحاج عبد العزيز بيتها مع المأذون ليقترنا في زيجة شرعية. تعلم أنه رجل يخاف الله سبحانه ولا يسمح لمشاعره أن تنطلق دون لجام يحدها من التسيب، فقد كان يضمر سلامة النية، ولم يدع لعينيه أن تنهلا تلك الوداعة دون هدف.

انتبهت لصراخ عبد العزيز

ـ ابعدي عني هذا الدخان يا امرأة.

وبتودد مشوب بالحظر تقول مريم:

ـ إنها تعويذة تشفيك من هذا المرض

ويسعل بقوة ويحاول أن يهرب منها ووجهه بدا متشنجاً على غير عادته

أرجوكِ لا أحب هذه الرائحة الكريهة.

تضحك مريم بتخابث

ـ إنها بخور يا عزيزي لتحميك من العيون والحسَّاد.

ويقع بصرها على أماني تسقي الزهور كعادتها قرب النافذة.

فتستمرىء حديثها وتشد كلماتها بعنف:

ـ لا أدري ما أن تدخل الأفاعي بيتنا حتى ينقلب حالنا رأساً على عقب.

تدخل أماني وتقفل النافذة بعنف، بينما مريم تضحك ملء فمها وكأنها تشعر بنشوة النصر على غريمتها.

يرن جرس الباب، ربما كان القادم متعجلاً في أمره، فتحت مريم الباب فاندفعت ابنتاها بعصبية تدعو إلى الرثاء، قالت الكبرى وهي ترمي أبيها بنظرة غاضبة.

ـ صحيح أنك ستتزوج أماني؟

واستطردت الأخرى:

ـ بعد كل هذه العشرة تجرح أمنا يا أبي

بدت أمهما صامتة، كأن على رأسها الطير مذهولة من هول ما سمعت وسألت:

ـ من قال لكما هذا؟

تردف الكبرى:

ـ ليس مهماً من قال لنا هذا، يكفي أن عرفنا عبر هاتف مفاجىء

لم يتمالك الحاج عبد العزيز نفسه فصرخ بحدة وهو يوجه حديثه إلى مريم:

ـ الحمد لله ان اختصرت لي الطريق، هذا كل ما أتوق إليه.

عنفت مريم ابنتيها:

ـ أريد أن أعرف من أخبركما بهذا الأمر؟

وباضطراب وتلعثم أجابت الكبرى.

ـ لا يهم إنها مجرد إمرأة، يعني هذا أن الخبر صحيح.

ما زالت مريم مدهوشة تقلب أفكارها، فلم تستقر على أي منهن، فهي واثقة أن جارتها «أم خالد» تكتم أسرارها دائماً، وأم خليل لا تعرف بناتها وليس لها مصلحة في ذلك وخطر لها

خاطر فجأة وهمست لابد أنها أماني قد دبرت لها مكيدة، هذه المجرمة المعتوهة.

شدت مريم ابنتها من ذراعها وهي تصب جام غضبها قائلة:

ـ هل هي أماني جارتنا الشيطانة، قولي لي لا تخفي عني هذا الأمر لا أريد تفشي هذا الخبر في الحي، إنها مهزلة واضحوكة سيتندرن بها نساء الحي.. تكلّمي هيًّا من هي تلك المرأة؟

نفضت يديها بعصبية وهي تهتف

ـ أكيد أنها أماني

اتجهت البنتان ناحية أبيهما تلومانه:

ـ لماذا تفعل بأمنا كل هذا فهي لم تقصّر في حقك.

زمجر الحاج عبد العزيز بهما وتكاد نار الغضب أن تحرق قلبه:

ـ اغربا عن وجهي لا أريد أن أراكما هنا ثانية، فمنذ أن تزوجتما وأنتما غائبتان عن والديكما، أيام وليالي أتوجع من الألم وأتمنى حنانكما لكنكما قاسيتان بليدتا الاحساس أنانيتان، رجاءً لا أريد أن أراكما هنا في بيتي ثانية يكفيني ما لقيت من أمكما وأنتما نسختان مكررتان

عنها، هذه المرأة ستكون زوجتي وابنتي وكل ما أملك في هذه الدنيا.

وأشار إلى الباب والدموع تنساب من عينيه الذابلتين، هيا اخرجا من بيتي لا أريد أن أرى لكما وجهاً أو أسمع عنكما خبراً.

هـرولـت البنتـان فـي غضـب وحـزن وأمهمـا تتبعهمـا وتناديهما «زينب! أحلام!» تعالا، أرجوكما لكنهما استقلا السيارة لتنطلق بهما واختفت وسط العواصف والرياح.

جاءت مريم وتكشيرتها الغاضبة قد أضافت سنوات فوق عمرها فبدت في عيني عبد العزيز مقرفة، مزعجة، وقالت له:

ـ لِمَ فعلت كل هذا؟ الآن أثبت لك أن الأفعى المسمومة تفعل وتخطط لتهدم هذه العائلة.

***

جلس عبد العزيز على الكنبة يضع رأسه بين كفيه ودموعه الساخنة تحرق خديه وتثير الحزن في قلبه، لم يعد يحتمل أكثر من هذه الضغوط، لم يكن بمقدوره أن يتحدث ويتشاجر فقد بلغ الألم في صدره إلى حد الإنفجار، تنهد وهو يتذكر أماني الإنسانة التي منحته الراحة والأمان، كم يتلهف لرؤيتها الآن، لا بد أن يلتقيها يجب أن يحسم قراره هل ما يفعله منكراً أو خطأ؟ فالناس تلتهم المحرمات كل يوم ولا أحد يعترض فلماذا

الإصرار على حرمانه هذا الحق الطبيعي؟ فهو يعرف مقدراته ودخائله النفسية وحسب لكل شيء حسابه، فليمضِ في غايته، فالقافلة تسير ولا يهمها أي اعتراض أو مواجهة.

وقف مغتاظاً وعنَّفها أكثر من أي وقت مضى:

ـ لا أريد أن أسمع لكِ صوتاً بعد اليوم، أفهمتِ وإلا طردتك من هذا البيت هذا آخر آنذار!!!

خرج وهو يصفق الباب وراءه ألقت مريم بجسدها على الكنبة المركونة في زاوية الصالة، ولهاثها المحموم يربك أفكارها تشعر بقواها قد خارت، وعقلها قد وهن، ثمة رعشة باردة تعبث في أوصالها.. شعور بالوحدة بعد إنكسار الظل وتساقط أوراق الخريف على أرض جرداء ثمة إحساس خافت يئن في داخلها ويتوجع، أحست بقلبها المنكوب يخترق صدرها الذاوي بضربات عنيفة تكاد تقفز من بين الضلوع، حينما يبتلع الذل الإنسان يضمر حجمه وموقعه في الحياة فيركن كشيء عتيق أو بقية من بقايا الزمن، لا أحد ينتبه لوجودها، اختفى كل شيء حولها، زوجها ابنتها، مصيرها المبهم يلوح في آفاقه المظلمة غيوماً سوداء، رؤية ضبابية متعبة كأنما الأشباح تتراقص حولها وتدق طبول الهزيمة. أما عيناها المتسمرتان فقد نبض بريقهما منذ سنين واستعاض الزمن عن هذا البريق بشرارة متوقدة تحرق كل معاني الجمال والهدوء في الحياة.

أصبحت تتهادى كالغصن الذابل تعصفه الريح يميناً ويساراً فانحنى ذلاً وانكساراً.

انفجرت باكية كالطفل الذي فقد أمه . .

الجزء الرابع

دق جرس باب أماني، خطت خطوات وئيدة، وحيرة تتملكها، فمنذ فترة طويلة لم تسمع رنين الجرس، وعندما فتحت الباب لم تصدق ما رأت عيناها، الحاج عبد العزيز واقف أمامها بجسده الفارع، وخلفه رجلان والمأذون، ارتبكت، عقدت الدهشة لسانها عن النطق.

قطع، عبد العزيز صمتها قائلاً:

ـ إذهبي لتتستري وعودي إلى الصالون.

أطرقت بخجل

ـ حسناً تفضلوا

جلسوا على المقاعد، بيد أن عبد العزيز راح يطيل النظر في البيت الجميل الذي رسم له صورة مثلى في مخيلته، إنه كما توقع، بيت بسيط، مرتب بتناسق جميل من حيث الأوان والأحجام، والنباتات الداخلية التي تزدان بها الزوايا وأطراف

النوافذ، وأصيص الزهور تحضنه المائدة الخشبية في لوحة باهرة الجمال، ناهيك عن رائحة البخور التي تفوح في البيت ثم بريق النظافة الذي يخطف الإحساس ويدفعنا إلى الإيمان بحس صاحبته وذوقها الرفيع.. تقف في وسط الجدار صورة معلقة لزوج أماني، ارتعدت عينا الحاج عبد العزيز فاجتنب النظر إليها، شعر بنظرات المتوفى وقد ألقى عليه نظرة لوم قاسية، ابتسم الحاج عبد العزيز وهو يبعد عينيه المرهقتين عن الصورة.

جاءت أماني مرتدية العباءة لتخفي كل جزء من جسدها، اطمأن عبد العزيز، فهو يغار عليها من عيون الناس، من نسمة الهواء العليل تدغدغ وجنتيها، فهي أصبحت نصفه الآخر، وكيانه الذي يحترمه ويقدسه.

وفي دقائق معدودة تم عقد القران، ليرحل الشاهدان والمأذون إلى غايتهما بينما بقي عبد العزيز إلى جانب زوجته أماني، رفع عنها العباءة وهو يتأمل وجهها الملائكي وجسدها النوراني، كل شيء فيها ينطق حناناً وعذوبة، تنهد قائلاً

ـ أين كنتِ منذ سنين طويلة.

ابتسمت بخجل

ـ كنت أنتظرك يا عزيزي

تنهد.. يعب أنفاساً مريحة في صدره

ـ الحمد لله أن رأيتكِ في زماني . .

قدمت له شراب الورد، وراحت تتحدث معه عن حياتها ومشاكلها وكل ما يجول بخاطرها بينما يصغي إليها زوجها بشرود سارحاً في عينيها الحزينتين واللوعة تعصر فؤاده، هذه المرأة العظيمة ينبغي أن يقدسها الناس لأنها تحمل في روحها أحاسيس خصبة معطاءة قادرة على احتواء كل مشاكل العالم تعصر الهم منه لتبصقه في وجه الزمان القاسي، شعر عبد العزيز بالارتياح لأول مرة في حياته، فصوتها العذب أذاب تلك الصخور المتحجرة حول قلبه وألهبت فيه إشعاعاً هادئاً مريحاً للنفس بل هو كالبلسم طراوة ونداوة.

قال عبد العزيز وهو يربت على كتفها في حنان :

ـ أعدي اليوم حقائبك لتأتي معي إلى البيت .

انتفضت

ـ لا يا عزيزي دعني في مكاني وأنا أكتفي بلقاءاتك القصيرة حتى لا أزاحم أم بناتك وأقسو عليها بوجودي معكما .

حدق بوجهها طويلاً :

ـ لا أستطيع، أريدك دائماً أمام عيني، أريد آثارك في كل شبر من بيتي، لا تحرميني متعتي الوحيدة في الحياة، ربما لن أعيش سوى أيام قلائل .

أطبقت باطن كفها على فمه صارخة ملتاعة

ـ لا . . لا تتفوه بهذا الكلام أرجوك، أتمنى لك العمر المديد سأمنحك حياتي لتعيش وأبسط لك أيام عمري لتحيا .

خفق قلبه لها، فهو لا يصدق أن هناك مخلوقة بهذه الرقة والوداعة فعاد يستحثها

ـ أرجوكِ يا أماني تعاليْ معي لم أعد أستطيع الاستغناء عنكِ فأنت حياتي التي يجب أن أحياها، أنت النور الذي سيشع في بيتي منذ اليوم، أرجوك أما آن لأيام حزني وتعاستي أن تغرب؟!

أحست بانكسار صوته فلم تستطع أن تخذله مرة أخرى فقبلت بعد تردد

ـ حاضر، سأعد حقائبي لأرحل معك، لكن هذا البيت لمن؟

قال :

ـ سأبيعه وأعطيكِ ثمنه .

* * *

قدمت أم خليل قنينة الماء إلى الحاجة مريم قائلة :

ـ هذا الماء مقروء عليه ضعيه في شاي زوجك أو قهوته

ولمدة ثلاث ليالي فهذا مؤكد سيبطل السحر وسيترك تلك المرأة.

تبددت تكشيرة مريم وتهلل وجهها بالفرح فدفعت مبلغ خمسين ديناراً للمرأة انتفضت أم خليل غاضبة وهي ترد المبلغ

ـ مائة دينار يا حاجة مريم، لقد سهرت الليالي الطويلة من أجل القراءة على هذا الماء.

تلافت مريم الموقف بذكاء

ـ أوه، لقد نسيت، سأعطيك ما تطلبين، فأضافت خمسين ديناراً أخرى وهي تشكر أم خليل بامتنان.

وسحبت قدميها النحيلتين، شعرت بهما أكثر خفة من الريح وأقوى من الحزن الجاثم على صدرها، انطلقت تسابق الزمن، لعلها الآن تستطيع أن تكسر هذه الرغبة المحمومة في أعماق زوجها. ستقطع الحبل من دابره، وتوجه ضربة قاصمة لهذين الأرعنين!

وفي طريقها تذكرت ابنتيها وما حل بهما في آخر لقاء، تبددت فرحتها وقررت أن تصلح الأمر.

فتحت باب بيتها، أحست برعشة تنتاب جسدها، اقشعر بدنها، زوجها وأماني في حالة من الهيام والشاعرية، صرخت صرخة محمومة انطلقت من أعماقها وكادت أن تزهق روحها:

ـ ما الذي أتى بكِ إلى هنا؟

صاح بها عبد العزيز:

ـ إنها زوجتي لها كل الحقوق، وان سمعت أي نقد فستعلمين ما هو قراري وتعرفين طبعاً عنادي في مثل هذه المواقف.

انكمشت أماني في جلستها خجلاً، تلعثمت لا تستطيع أن تبدي أي حراك.

لطمت مريم وجهها صارخة، وقد سقطت قنينة الماء وانكسرت فبدت في حالة هستيرية:

ـ حرام عليك، أتخونني بعد هذا العمر الطويل، لقد خدمتك طوال عمري ولم أتردد في اسعادك.

خارت قواها وتكومت على الأرض كبقايا عظام محطمة.

هبت أماني واقفة لنجدتها، لكنها دفعتها وبصقت في وجهها

ـ إليك عني أيتها الأفعى اللعينة، سيعاقبك الله على ما فعلتِ.

تتمتم أماني بصوت يرتعش:

ـ انهضي يا عزيزتي، سأرحل إلى بيتي، سأرحل في

الحال.

شدها عبد العزيز من ذراعها معنفاً:

ـ أين ترحلين، أنت زوجتي الآن وقراري هو الذي يسري عليكِ.

شعرت أماني باحباط وانكسار، فرجته ثانية

ـ أرجوك يا عبد العزيز دعني أرحل إلى بيتي ريثما تهدأ زوجتك

اقتربت أماني من مريم لتربت على كتفها في حنان هامسة مرتجية:

ـ أرجوكِ انهضي سأرحل الآن.

ارتدت أماني عباءتها وعادت لبيتها كسيرة القلب دامعة العينين، بينما بقيت مريم على حالها السيئة تولول وتضرب كفيها برأسها كأنها تنعي شخصاً عزيزاً قد فارق الحياة، تتنهد تنهدات متحسرة والدموع تنساب على خديها كمجرى نهر حفر في خديها علامتان قاسيتان تضيفان لها مزيداً من العطب والصدأ «يا لحظي السيّىء، سأتصل بابنتي زينب لتأخذني إلى بيتها، فلا مكان لي هنا في هذا البيت المقفر، سأعيش مع ابنتي».

قهقه عبد العزيز متهكماً:

ـ ابنتك زينب نسخة مكررة منكِ، قاسية، بليدة الإحساس ستستضيفكِ يوماً، أو يومين ثم تطردكِ بمبررات واهية.

رمقته بنظرة غيظ وحقد مرير صاحت وهي تنهض واقفة:

ـ ذل ابنتي ولا ذل زوجتك الأخرى.

تأفف متذمراً:

ـ اذهبي واغسلي وجهكِ فأماني امرأة طيبة لم تهنكِ بشيء بل أنتِ التي تعرضتِ لها بالإهانة.

بصقت على الأرض وعلامات القرف ترتسم على محيّاها المتغضن.

ـ فلتخسأ هذه اللعينة، لا أريد أن تدنس بقدميها قدسية أرض بيتي.

راح عبد العزيز ينفث دخان الغضب في أذنيه والشرر يبرق في عينيه.

ـ إذن خذي لكِ هذا البيت وسأعيش أنا مع أماني لنحل هذه المشكلة.

ـ خرج مغتاظاً ترتعد أوصاله غضباً بينما شدته مريم من ذراعه هاتفة متحشرجة

ـ لا . . لا تذهب إليها، هذا بيتنا معاً وهي الدخيلة على بيتنا والمتطفلة على حياتنا.

نفض يدها بشدة وخرج دون أن يعيرها التفاته.

وسابق الريح حيث المصير المجهول. . والطريق الذي قرر أن يسلكه حتى النهاية.

أسرعت مريم الخطى إلى الهاتف لتتصل بابنتها الكبرى زينب، وحدثتها عن الموقف الأخير، بينما البنت تجيبها بسخرية:

ـ الآن، لا فائدة من كل هذا النحيب يا أمي فالناس كلها تعرف وهي لم تعد مجرد اشاعة، عليكِ قبول الواقع، لقد خرجت مع أختي مطرودتان منذ أيام فلم تبادري وتتصلي بنا لتصلحي الأمر مع أبينا.

تستنجد أمها بها ثانية:

ـ زينب أنا محتاجة إليكِ أبوك قد ترك البيت ورحل إليها.

وبتذمر تجيبها ابنتها:

ـ يا أمي اقبلي الواقع ربما سيطلقها فور أن يشبع منها وهي صغيرة في عمر ابنته ستسأم منه وتطلب الطلاق، يا أمي زوجي حسام يعيش على مرتب صغير وأطفالنا صغار وبيتنا لا يحتمل أي طرف آخر، سآتي لزيارتك بين فترة وأخرى.

عنفتها أمها غاضبة :

ـ أنتِ قاسية كما قال عنكِ أبوكِ، ثم أقفلت سماعة التليفون بوجه ابنتها . .

* * *

دخل الحاج عبد العزيز بيت أماني أصفر الوجه ذابل المُحيَّا قد زاده القلق سنيناً كثيرة فوق عمره، استقبلته أماني بدموع صامتة تترقرق في عينيها، أدخلته إلى غرفة النوم فقد كان مرهقاً، متعباً.

ارتمى بجسده المثقل على الفراش وطلب كوباً من الماء، سقته أماني الماء وراحت تؤنب نفسها كثيراً:

ـ أنا السبب في كل ما يحدث .

الفرحة غائبة عن وجه عبد العزيز والكلمات تغرغر في بلعومه وتذوي في لسانه الجاف بينما أنفاسه تلهث على غير عادتها .

ـ إنها حياتي القاسية التي بدأت باختيار خاطىء جعلني أدفع ثمنه كل يوم، لقد صبرت حتى فاض صبري .

هدأت أماني من روعه :

ـ لا يا عزيز روحي ستبدأ اليوم معي صفحة جديدة من حياتك، سأنعشها بالمسرات سأرسم الفرحة على شفتيك فهذا

عهد ووعد لن أحنث فيه أبداً.

ابتسم عبد العزيز ابتسامة غابرة، عيناه مغمضتان، تقطفان بقايا الحياة من مخيلته التي تتوارى مع العدم.

أحست أماني بانعتاق روحه وغياب شعوره بين الوجود والغيب، ثمة علامات شفافة أشبه بغلالة نورانية تنسج خيوطها فوق قسماته... تورعت عن الحديث معه، لكنه يتصبب عرقاً ويتمتم في هذيان غريب.

ربتت على خديه قلقة خائفة تحاول أن تعيد إليه شيئاً من الوعي.. وبعضاً من الأنفاس، تود لو تهب رئتيها حتى تختلج بنبض الحياة من جديد، لكنه مدبر عن الحياة، يتردد في قبولها ثانية.

ذعرت:

ـ «عبد العزيز ما بك يا عزيزي»

نهضت لتتصل بالطبيب

وجاء الطبيب على عجل، وبعد فحص دقيق، قال:

ـ سأطلب سيارة الإسعاف، ثمة هبوط حاد في قلبه، لا بد من نقله إلى المستشفى.

تسمرت أماني في مكانها عقدت الدهشة لسانها، «شيء رهيب يا إلهي، أبهذه السرعة تحدث المفارقات.. لم أكن

أتوقع أن أختم لقائي الرائع به بغيابه المفاجيء، لقد حاولت أن اسامره، حاولت أن أجدد دمه حاولت أن أنعطف به إلى طريق آخر حيث روابي الحياة الخضراء.. خارت قواها وحست بدوار يلـف رأسهـا ويكـاد يسقطهـا علـى الأرض، تحـدق بـوجـه عبد العزيز وقد شحب لونه وتمدد جسده كالأموات.. وهاهي تزفه إلى المقبرة، تحجرت الدموع في مقلتيها لا شيء يسكن جرحي ويطيب ألمي بعد أن رأيت أعز الناس خافت الأنفاس، ساكن الصدر ينقل إلى سيارة الإسعاف.

وتصدعت الفرحة وتقوضت الآمال حينما آمنت مجدداً بسعادة وهمية ومستقبل مظلم وحب لم ير النور.

انطلقت سيارة الإسعاف بالحاج عبد العزيز، وصوت صفيرها يدق طبول النهاية وينذر بيوم مشؤوم، ولحظة غروب ساكنة تطل في الأفق الممتد.. تجمع الجيران واقترب الناس في حديث واحد عبد العزيز ذلك الطود الشامخ ينهار في لحظة عشق يتيمة إلى الحياة.. وزمان سامد يطبق بكفيه على أنفاس أماني الخرساء التي تكتمتها فلم تتردد إلا لتموت ثانية وكل شيء فيها قد وهن بعد أن خرج هذا الرجل من بيتها محملاً بأساه ومرضه، لقد أحبته فملك روحها، تأملت زهورها التي تركتها منذ ساعات فذبلت... وانتكست معها لحظات الحب الحميمة.

* * *

وتلك الحزينة المتكومة فوق الكنبة ككتلة محطمة من العظام، اعتلت رأسها غمامة سوداء وهدوء مطبق، أشبه بصمت الأموات، لكن طرق الباب العنيف هزَّ كيانها وأطلق السكون من عقاله.

صوت أم خالد تصرخ من خلف الباب «مريم، مريم.. إفتحي الباب»

ثمة أمر خطير أو طارىء لم تحسب له حساباً يدنيها من الخوف، انطلقت كالريح ناحية الباب وإذا بها تندهش بأم خالد تنعي إليها ذلك الخبر المفاجىء.

ـ مريم، زوجك الحاج عبد العزيز نقل إلى المستشفى ألم تسمعي نفير سيارة الإسعاف قبل لحظات، الدنيا كلها تقوم وتقعد وأنت لا تدرين.

ارتعدت فرائصها

ـ كيف؟

ـ لقد أخذته الإسعاف من بيت أماني.

صرخت مريم وكأن الأرض تتزلزل تحت أقدامها

ـ لقد قتلته المجرمة، سأذهب إليها وأعنفها لأعرف قصتها.

تشدها أم خالد

ـ بل فلنذهب إلى المستشفى.

أسرعت مريم الخطى إلى بيت أماني وهاجمتها وهي في حالة جنونية متنمرة، شدتها من ثوبها:

ـ ماذا فعلت بالرجل أيتها الحمقاء أنت قاتلة.

دفعتها أماني بكل عنف وبدت في وحشية انفجرت بعد أسر سنين، وصبت جام غضبها عليها:

ـ بل أنتِ القاتلة، أنتِ السافلة، لقد صرعتِ فرحته بأفعالكِ الرعناء وأساليبك المدمرة، إنه ذنبك وجرمكِ!

صفعتها «مريم»، وهي في حالة أشبه بالهستيريا

فردت أماني صفعتها بأخرى أكثر عنفاً، حاولت أم خالد أن تفك اشتباكهما قائلة

ـ يا مريم فلنذهب إلى المستشفى، لا وقت للشجار الآن.

استطردت مريم

ـ لقد اتصلت ببناتي وأفشيتِ خبر زواج أبيهما، بل أذعتِ الخبر لكل الناس حتى أتحول إلى اضحوكة.

انتفضت أماني مرتعدة وهي تصلح شعرها المنكوش، وبحلقت فيها طويلاً:

ـ أنا لم أتفوه بكلمة، لم أخطىء في حقك أو في حق عبد العزيز، إنني لا أعرف بناتك ولا أعلم من أين لك كل هذه الأخبار.

أنقذت الموقف أم خالد:

ـ مريم فلنذهب إلى المستشفى

ألقت مريم على أماني نظرة لوم غاضبة:

ـ ماذا حدث له؟

ـ إذهبي لترين بنفسك.

استطردت أم خالد وهي تشد مريم من ذراعها

ـ هيا.. ألا يقلقك أمر زوجك.. يا لبرودة أعصابك.

كانت مريم تظن أنها نوبة صدرية تحدث لكل الرجال في مثل هذا العمر.. لم تكن تحسب حسابها للغد الآتي.. إنها تؤمن في قناعتها بحيوية عبد العزيز وبعد المسافة عن الشيخوخة والمرض. لكن القدر له تصريف في أحوال الناس، فبينما هما في طريقهما بين الأزقة والدروب الضيقة منطلقتان إلى الشارع العام، رأتا صبي الحاج عبد العزيز باكياً مُعفراً خديه بالتراب رث الثياب قد أشبعها تمزيقاً يصرخ

ـ لقد مات الحاج عبد العزيز، مات قبل أن يصل إلى المستشفى!

صعقت مريم، فصرخت صرخة مزقت الأفق المغبر في لحظة أدبرت فيها شمس الحياة عن قلبها الحزين، أُغمي عليها، بينما أم خالد تلطم وجهها وتنادي الجيران مفزوعة. ووقع الخبر في مسامع أماني وقع الصاعقة المدوّية، خسارة وخيبة عصرتا قلبها المطعون طعنة عميقة لن يندمل جراحها على مر الزمن، سحبت بردته المعطرة بدهن الورد لتشمها باكية، لمست حنانه هنيهات قصيرة في هذه الدنيا، الحزن جاثم على صدرها منذ لحظات لكنه الآن تأصل فيها وتبرعم في شرايينها وكيانها، تأوهت وكأن خنجراً مزق خاصرتها وألهب وجدانها حنيناً لا ينطفىء وشوقاً لا يخبو. شعرت بضيق في صدرها فانطلقت إلى النافذة تعب نفساً عميقاً وتطلق لهاثها الحار ووجهها المتمرد، فشرد بصرها ناحية المقعد الخاوي من عبد العزيز وفنجان القهوة الذي جفت في أطرافه الحبيبات الباقية، شجرة البرتقال المتدلية الأغصان الوسنانة، وأوراقها الخريفية الذائبة، لمحت طيفه النوراني وابتسامته المتوهجة، وحمرة وجهه التي امتصها الزمن القاسي، انعصر قلبها وذاب كبدها حزناً وكمداً. فوخز الألم المكبوت يتفجر في لحظة وينسف ما يتبقى فينا من صبر وإرادة، حملت أصيص الزهور ورمته في فناء البيت لينكسر، وتنكسر معه أحلامها السراب وأمانيها الذاوية، شدت شعرها متأوهة «العلّي شؤوم على الرجال كلما اقترنت برجل توفي، ورحل إلى عالمه ليتركني

فريسة للأحزان والآلام» رفعت كفيها إلى السماء داعية «يا إلهي هل أصبح القدرِ خصمي الذي يرفض معاهدة الصلح معي ويذيقني كل يوم كؤوس المرارة والحرمان» .

الجزء الخامس

وخلال شهور قليلة انتقلت أماني إلى أحد أقاربها لتعيش معه بعد أن باعت البيت وقبضت ثمنه ليكون زادها في مشوار عمرها واستأنفت الأيام دورتها الرتيبة ليصبح عبد العزيز ذكرى في زاوية النسيان.

بينما مريم قد تغيرت تماماً فركبها الذل ووخز الضمير، وتمنته ظلاً تستظل به من حر الزمان وبرودة الأيام أو شبحاً يطير فوق روابي عمرها المنصرم لتتزود منه بنظرة رحمة أو لمسة حنان، ما أوجع سياط الضمير حينما تلسع وتكوي القلب بنيران ملتهبة لا تخمد ولا تهدأ، عرفت فيما بعد أن صديقتها المخلصة هي التي أفشت خبر زواج عبد العزيز وأشاعته بين الجيران.. نزعت من قلبها كل الناس، بنتاها العاقتين وصديقتها الخائنة، راودتها الشكوك في كل شيء كأن عيون عبد العزيز كانت ترصد الحياة أمامها بصورة واضحة والآن خانها النظر فأقفلت على نفسها الباب لتعيش وحيدة، كئيبة،

تأكلها الذكريات المرة والحلوة. . وأمنيات سراب لن تستطيع أن تعيد الزمن إلى الوراء.

تمت بحمد الله

بقلم: خولة القزويني

خيانة زوجة

تقف الآن سعادٌ مذهولة أمام البيت الكبير حيث جدرانه الصامتة وهدوؤه القاتل وثمة رياح تصفرَ من بعيد كالهواجس تعصف بقلبها المضطرب تحولت الآن إلى ركام من الأحزان، شعرها الكثيف الذي كان يتوج رأسها الجميل قد تساقط كالشهب بعد أن انطفأ لهيبها.

عندما التقته أول مرة ظنت أن الحياة قد ابتسمت لها عن ثغر معطاء يسقيها كل يوم قبلات الرحمة فقبلت به زوجاً احترمها، أحبها، قدم لها قلبه ومشاعره وروحه كما لو كانت قديسة حملتها أجنحة الملائكة إليه من السماء ثم أنجبت منه ولدان رائعان يزدان بهما عش الزوجية، ارتقىٰ زوجها إلىٰ منصب رئيس إدارة فتراكمت عليه المسؤوليات.

وانشغل فكره في أمور كثيرة فاضطربت حياته رغماً عنه،

أحست سعاد أن نبع الحب قد جف واهتمامه قد تدنىٰ فشاءت أن تنبهه إلى هذه الوحدة القاتلة التي تلفها من كل ناحية تارة تتذمر فتهمل بيتها، وتقرف من طهي الطعام وتهمل ولديها وتارةً أخرىٰ تطلب منه مئات الدنانير لتصرفها عبثاً في الأسواق دونما هدف أو غاية وهو لا يحب أن يرفض لها طلباً يقدم لها بين فترة وأخرىٰ أغلىٰ الهدايا ملابس، عطور، مجوهرات واقتنىٰ لها أثمن سيارة.

وفور أن تخرجت من الجامعة التحقت بوظيفة محترمة، جذبتها شلّة من الموظفات العابثات إلى أجواء وعوالم مختلفة عن بيئتها، وقد غذّىٰ الفراغ والوحدة حاجتها إلى هذه الأشياء، تسهر معهن، تصاحبهن إلى الشاليهات، وعندما كان زوجها يسألها عن غيابها المتكرر عن البيت تقول إنها في زيارة لأمها أو لأختها، وكان زوجها يثق بها ثقة عمياء، لأنه يعتقد أن ما يمنحه لها جدير بكسب قلبها، حتىٰ حدث ذات يوم.. أن التقت برجل مهم ذا منصب كبير أعجب بجمالها مال قلبه إليها فأغدق عليها كلمات الحب والعاطفة والغزل، وكان قلبها يرقص طرباً لهذا الحب لم تكن تفكر أن في هذا التجاوب تجاوزاً لخطوط الشرع وحدّية الأخلاق والضمير، فالنساء تصادقن رجالاً من أجل الترفيه عن أنفسهن فهذه تخاطب صديقها أمام زميلاتها وهن يتقبلن الأمر كواقع اعتدن عليه، وتلك تزور صاحبها في المستشفىٰ لأداء واجب تظنه أمراً طبيعياً محتوماً.

الظروف كاملة كانت تنسج حولها خرافة إسمها الحب، فاستطاع ذلك الرجل أن يستدرجها إلى حبائله فكانت تلتقيه وتمارس معه الخطيئة رغم أن معاملتها لزوجها حنونة وطيبة ولم يتغير من تصرفاتها أي شيء وهو أي الزوج سعيد بها وبأخلاقها وبحنانها المزيف فلم يكن في حالة من القلق. تستدعيه أن يبحث في هذا الأمر أو يشك في سلوكها. حتىٰ شاءت إرادة الله أن تكشف زيفها، كان الزوج في البيت يكتب بعض التقارير الخاصة في عمله بينما سعاد راقدة في فراشها تشاهد التلفزيون، رن الهاتف فرفعت سماعة التلفون، في الوقت نفسه حمل زوجها تلفون الفاكس في المكتب والتقط صوت رجل قبل أن يهمس بأي حرف، أصغىٰ زوج سعاد إلىٰ صوت الرجل وهو متيم يزفر أشواقه وتنهداته لزوجته وعاطفة محمومة بينها وبين صاحبها هذا، صُعق، اضطر إلى تحويل الفاكس على جهاز التسجيل ليلتقط حوارهما كاملاً لاحظ أن ما بينهما مخجل ومريب، وما أن انتهيا حتىٰ ذهب إلى المطبخ مسعوراً بغضب الخيانة حانقاً متوحشاً يود لو ينقض عليها ويقتلها، حمل سكيناً حاداً واتجه إلى غرفة النوم ليقتلها ليطعن قلبها الغدّار، لكنها استنفرت كل قواها وصارت كاللبوة التي تشحذ مخالبها تسبه، تشتمه، وتتهمه أنه في علاقة محرمة مع الخادمة، وأنها تنتقم منه، لكنه فكّر وهو في خضم غضبه أن ما يفعله خطأ كبير، فهددها بفضحها عند أهلها فردّت عليه أن

انتقامها أكبر لو فعل ذلك.

فرت سعاد هاربة إلى أهلها غاضبة وفي الطريق أعدت السيناريو الفاضح الذي تدين فيه زوجها، وهناك اتصلت بصديقها وأخبرته أنها في حالة يُرثى لها، وتم تدبير مؤامرة شيطانية لإلقاء الزوج في السجن، ونشرت بين الناس الافتراءات والأكاذيب بحق زوجها المسكين، وأنه زير نساء حتىٰ ضبطته بالجرم المشهود! فذهب إلى زوجها من يهدده بالقتل ما لم يعطه هذا الشريط، مستغلة بذلك نفوذ صديقها واتصالاته الواسعة وهيمنته على كبار الأمور. وتم لها ما أرادت ألقي زوجها في السجن وأخذت الولدين، ومضت في طريقها المحرم وطالبت زوجها بالطلاق، وتطلقت، وعندما خلا لها السبيل حاصرت صديقها بمطالبها الخاصة قائلة له إنها الآن جاهزة للزواج. ومستعدة أن تتزوجه، لكنه بعد أن استنزف كل مشاعرها ورغبتها ووصل إلى حد التخمة زهدها، بدأ يتهرب، طعنها في كرامتها.. دمّر حياتها اتهمها أنها مجرمة فرطت في زوجها والد ولديها، صرخت مزقت وجهها من الضرب شدت شعرها، بكت.. أنا أحبك، أحبك لا يمكنني الاستغناء عنك، إنه لفظها صديقة ورفضها زوجة، بل أراد أن يلغيها تماماً من ذاكرته، هددته بالفضيحة أمام زوجته أم أولاده، لكن تهديده أكبر، فهو في منصب كبير جداً يستطيع أن يرميها وراء الشمس بإشاره صغيرة، خافت تكومت على حزنها كلما حاولت

الاتصال به يرد عليها صفير الفاكس، أو نبرات السكرتيرة الروتينية أن المدير غير موجود، أو في اجتماع. تعبت، تمزقت من الأعماق، عادت إلىٰ شلتها مطحونة، مهشمة الكرامة، تحتقر ضميرها الميت وسعار رغبتها المشتعل، وتفريطها بزوجها وأولادها، وهروب قاتلها، حتىٰ صادف أن التقته ذات يوم في إحدىٰ الفنادق الكبرى يجالس شابة صغيرة شقراء، صعد لهاثها تود لو تهوي على رأسه بمطارق عنيفة تضاهي عنف غيرتها لكن أنّىٰ لها ذلك وهي لا تعدو بالنسبة له إلاّ نزوه عابرة.

مرت الأيام والأشهر، خرج زوجها من السجن، يقرفها، يمقتها أشد المقت، أخذ الولدين، وتزوج ابنة خاله واستقر في حياته. وبقيت سعاد في البيت وحيدة منهوكة الأعصاب تتذكر حياتها الهانئة فيما مضىٰ، وزوجها المخلص الذي قدم لها الحب الصادق والوفاء النادر حتىٰ طعنته بخنجر الخيانة، وانسحب من حياتها مجروحاً، بينما بقيت ساهمة، سامدة، تطاردها أشباح الوحدة والسأم وكرامتها المسحوقة تلوكها الألسن ووجه قد فارقته الإبتسامة وطوحت به الأوهام، وشعرها الطويل الذي كانت تتباهىٰ به يوماً قد أصبح خيوطاً باهتة أتلفها المرض والقلق، حتىٰ تم نقلها إلىٰ مستشفىٰ الأعصاب.

هذه هي نهاية سعاد، لحظة ضعف دفعت ثمنها غالياً، وشتتت أسرة كاملة، فلتكن سعاد عبرة لكل زوجة تغالبها أحاسيس شيطانية طارئة.

نبضات زوجة معذبة

كـانـت تجلـس أمـام التلفـزيـون وعينـاهـا مثبتتـان علـىٰ الصورة، لكن عقلها شارد تحتسي الشاي بشفتين فاترتين تجمد الإحساس فيهما، ألقت بجسدها الصغير على الكنبة ثمة نور خافت يتراقص علىٰ صفحة خدها الأسيل تنهدت بعمق وكأن بركاناً في صدرها يكاد ينفجر ويخترق هذا الصمت، سنوات من عمرها تنقضي وزوجها ما زال تائهاً في أحلامه السراب، صفقات تجارية كثيرة، أمنيات بعيدة المنال، أشياء كثيرة غير قابلة للواقع والمنطق السليم، وخارطة الحياة تبعثرت فوق أمانيها المتعطشة، ابتلعت مرارتها، قبل دقائق معدودة حاورها وهو يتمدد فوق الكنبة وينزع من جوفه فتات أشياء قد علقت بالذاكرة وحينما استعرت نيران غضبها فجّرت قهقهات غريبة، ابتسم ابتسامته البلهاء ثم نهض كمن ينفض عن جسده غباره

المقرف، ودس جسده الضخم في الفراش تذكرت أن طفلها غالباً ما يصحو مفزوعاً نتيجة كوابيس غريبة تراوده أثناء نومه، قامت متعثرة الخُطىٰ تجر بقدميها الصغيرتين مللها وتبرمها، وقفت أمام طفلها أحمد ذو السبع سنوات تتأمله كما لو كانت تقرأ على صفحة وجهه أحلامه البريئة، قبلته وسحبت على جسده الضئيل الغطاء، لا تدري ما تفعل، إنها تبحث عن كيانها الضائع وسط زحام مبهم تائه، سنين طويلة وهي في انتظار أن يصحو يوماً إلىٰ صوتها الدافىء يستجديه أن يشعر بها، ويفهم لغة عينيها وحرمانها الطويل.

كم تتمنىٰ لو ينتبه إلى حزنها ويمنحها حباً ليشع ذلك النور الوسنان في جنبات قلبها الحالكة. أطفأت زر التلفاز وأقفلت راجعة إلى غرفة نومها، كان يغط في نوم عميق وشخيره يطرق مسامعها بقسوة، انتبهت إلى مجموعة القصص والروايات التي فرغت من قراءتها قلبتها كأنها تطالعها للوهلة الأولىٰ، كلها تدور في وجدان تعصره الحيرة والضياع، اضطجعت، حاولت أن تنام لكن شرايينها مستنفرة. وأحاسيسها تائهة، بيد أن شخيره قد أقلقها، ربتت علىٰ كتفه «صالح»

انتفض في ذعر، جفناه منتفخان قد ذبلا باسترخاء فوق عينيه.

«ها.. مابكِ؟؟

أرجوك كف عن الشخير نم على جنبك الآخر.

أدار ظهره إليها مدبراً.

هزته بعنف.. إنهض لتكلمني».

لم يعرها أية التفاتة.

قلبت شفتيها بامتعاض، وكان لا بد أن تختار طريقاً للهروب، والنوم في جوف الليل هو خيارها الذي لا مفر منه، تمددت بعصبية أوشكت أن تصنع في مخيلتها جداراً سميكاً يفصل هذين الجسدين، وتنافرت الوسادتان على طرفي السرير.

تدفقت حزم النور عبر نوافذ بيتها وثمة أصداء تتناهىٰ إلى مسامعها، الخادمة تعد الفطور، أصوات الملاعق والصحون، ماكنة العصير همهمات أحمد يقفز كعصفور صغير في ربوع بيتها، يتهامس مع الخادمة كعادته كل صباح، شردت ببصرها عبر النافذة تتحسس بعينٍ ساهمة، أغصان الشجرة المجنونة تتراقص فوق جدار الحديقة قد تناثرت وريقاتها النديّة، فقد سقتها يد الغيب قوة غريبة تدفعها إلىٰ ضرب الأعماق اليابسة لامتصاص نفحات السعادة عبر الجذور، فتراها تتحدىٰ وتتمايل كقدود حسناوات يافعات، لا شيء يستحق الحزن هكذا يتراءى لي كلما تطالعني هذه الشجرة الجبارة، رغم مرارة الصيف وجفاف الصحراء، تضج بالفرح ويدب فيها الحياة بملء

وجدانها.

وقف صالح أمامها بقامته الفارعة قائلاً:

ـ هيّا.. يا هدىٰ.. تعالي لنتناول الفطور!..

رسمت على شفتيها ابتسامة باردة لفت جسدها بثوبها الحريري وقطعت أشواطاً حائرة.. الشاي هذا الصباح مليء بالأمنيات الرائعة، دفعت إلىٰ زوجها كوبه الذي اعتاد عليه قائلة:

ـ نحن مدعوان هذا اليوم على الغداء.

ـ أين؟

ـ في بيت عمي فقد عاد ابن عمي من فرنسا وستقيم له والدته مأدبة غداء بهذه المناسبة فقد اتصلت بي يوم أمس وأخبرتني بذلك.

تململ في جلسته ثم قال:

ـ إذهبي لوحدك

قاطعته:

وأنت؟

حاول أن يطرد شبح الإحراج

ـ أنـا لا أستطيـع فعنـدي ارتبـاطـات كثيـرة، أرجـو أن

تعذريني.

غاص قلبها في صدرها، وتشتتت أفكارها مع نبض لوعتها.

ـ إنها ساعات قليلة ثم تعود إلىٰ شغلك، صمت ولم يعد قادراً على حوارها، ثم سحب كرسيّه قائلاً:

ـ بلغي تحياتي إلىٰ عملك.

ارتدىٰ أحمد بذلة المدرسة ووقف أمامها يشدها من ذراعها

ـ هيا.. فلنذهب إلى المدرسة.

تنهدت.. فالواقع يشدها إلى دوامة غريبة قد ألفتها رغماً عنها ولم تعد تستطيع الخلاص منها، وفي طريقها إلى المدرسة، تنهب المسافات نهباً ثم يستدير بها الشارع الطويل نحو منعطف هادىء تترامىٰ على أطرافه شجيرات باسقة الغصون ربما هي الحياة تأخذنا في متاهات كثيرة وتنعطف بنا نحو مفاجآت مدهشة.

فتحت باب السيارة، قفز أحمد كقطة أليفة متجهاً نحو الباب الرئيسي للمدرسة وقبل أن يغيب عن ناظريها أومأ إليها بذراعه الأيمن وابتسامة بريئة ترتسم على شفتيه، وبادلته الإبتسام، لقد اطمأنت أن هناك شرياناً متصلاً بطفلها ينبض له

وحده بصدق ذلك البرعم الصغير الذي تستمد منه روح البقاء والتفاني لم تشأ العودة إلى البيت ثمة قوة عارمة تدفعها إلى التجوال في هذه الشوارع لتبحث عن ضالتها المنشودة وسط هذا الزحام «فلأقتحم بقوة وأسبر أغوار المجهول فلم أعد قادرة على احتمال هذه المطارق السخيفة التي تهوي على رأسي قهقهت بملء شدقيها وبملء إرادتها، ربما تسأم من هذه المعركة الصامتة مع نفسها وتعود إلى صوابها، فهذا جنون وحيرة ينبغي أن يكفا عن الصراخ».

إنها الآن في قمة النشوة، لا تحد رغبتها حدود، ومزاجها يثور بوجه أحاسيسها التائهة الباحثة عن مرفأ أمان تستظل عنده لا تدري إلاّ وأنها باتت في حضن العائلة، يلتصق طفلها بجسدها، تتفرسها العيون، هذه «هدىٰ»!

ما زالت جميلة ورشيقة، ويأتيها صوت دافىء يقتحم مسامعها هاتفاً «لكن في عينيها حزن دفين» انتبهت مشدوهة «هذا مصطفىٰ ابن عمها» احمر وجهها تلعثمت لا تدري ما تقول، حاولت أن تبدد هذا الارتباك، ويخطو ناحيتها خطواته الجريئة التي طالما استشعرت هيبتها فيما مضىٰ، جلس إلى جانبها يتحدث.

ـ هدىٰ أراكِ قد تغيرت كثيراً!

تنفست الصعداء.

- كل شيء في الدنيا تغيّر يا مصطفىٰ.

- إني أرىٰ فيك ما لا يرون!

وتشيح وجهها عنه خشية أن يفضح سرها.

ويمضي في حديثه:

- مهما حاولت أن تخفي عن أحد..

قاطعته بتوسل ذائب:

- مصطفىٰ أرجوك كف عن هذا الحديث.

ازدرد رمقه، وعيناه ما زالتا تسبران صدرها في غرابة

- إنكِ ما زلتِ تحتفظين بشيء من الود ناحيتي.

اضطربت كل شيء في جسدها يرتعش، تود لو تغوص في باطن الأرض.

- مصطفىٰ إرحمني بصمتك.

قام مشدوهاً، ترتبك الأسئلة في مخيلته، هذه المرأة التي طالما كتب فيها شعراً، وألهمته كل تلك الأحاسيس الدافئة التي ملكت عقله وقلبه.

وغاب مع ضيوفه، وهدىٰ أصبحت حادة المزاج، تأكل بعصبية تتحدث بانفعال وولدها لصيق بها يكاد يشد ثوبها بعنف، تعنفه «ابتعد عني قليلاً يا أحمد ما بك تضايقني» فغر فاه

مشدوهاً «ماما . . ما بكِ» تأخذ نفساً عميقاً . . الكون كله يضيق في صدرها، أشعر بالحر يا ولدي اذهب والعب مع الأطفال، يحاورنها جليساتها وتجيبهن بعقلٍ غائب وفكر مشتت.

تقول عمتها «خذي قطعة من هذه الحلوىٰ» وبحركة آلية تجد نفسها تلتهمها، ليس فيها حلاوة السكر، كل شيء ذاب في معنىٰ واحد، الطعم، الإحساس، العقل، ذلك الرجل الذي خطف بصري هناك نحو غيمة ضبابية تاهت بعيداً عن الدنيا، امتقع لونها، تخشىٰ أن يعود إليها ثانية ويفرض عليها إحساساً تخشاه.

ـ أرجوك ابتعد عني! . .

هتفت متمنعة وعيناها تقتحمان كل شيء فيه.

يربت على ظهر ولدها أحمد.

ـ إنه يشبهك!

صمتت وهي مطرقة:

ـ هل تحبين أن أوصلك إلى البيت.

نظرت إليه بعينين متوسلتين

ـ مصطفىٰ الماضي انتهىٰ وأنا الآن سيدة متزوجة

ولكنك بالنسبة لي هالة من نور تسطع في ظلمة حياتي، أنا لا أريد أن أجسدك كامرأة آدمية، إنهم يرونك طيناً وأنا أراك

محض روح.

خرجت مفزوعة، تهرب من عينيه العالقتين بكل جوانحها، ولهاثها يتصاعد كأن قلبها يضج في صدرها مدوّياً بالخوف والرهبة.

وقادت سيارتها بسرعة جنونية حتىٰ اصطدمت بجسد زوجها واقفاً كالطود الشامخ يهدهد أحلامها الضبابية بسخريّة.

ـ لقد عدتِ بسرعة؟

جذبت نفساً عميقاً:

ـ كنتُ أفكر فيك.

أجاب مقتضباً:

ـ لقد تغديت

افتعلت ابتسامة

ـ ما رأيك لو تتناول معي فنجاناً من القهوة.

ـ لا بأس.

وجلسا علىٰ مائدة صغيرة من الخيزران وعلى غير عادته بادرها قائلاً:

ـ هل كانت زيارتكِ ممتعة.

ـ بعض الشيء.

وفي دهشة يسأل:

ـ لماذا؟

وبلسان رطب جميل يشوبه شيء من التودد:

ـ لأنك لست معي، المكان الذي يجمعنا معاً هو عندي أجمل شيء.

ارتسمت علامات السرور على وجهه فاستطرد:

ـ أصبحت شاعرة!!

كان لا بد أن تقحم نفسها في عالمه الغامض وتبدد صمته المزعج.

ـ لماذا لا نحب بعضنا كما كنا سابقاً؟ لِمَاذا جفت عواطفنا فغدت حياتنا صحراء قاحلة خالية من الرواء؟ هل تحبني يا صالح؟! هل تفهمني؟! هل تعرفني حق المعرفة؟ إنني أراك شبحاً يجول صامتاً في كل ركن من أركان هذا البيت إن في قلبي حاجة كبيرة إلى حبك واهتمامك، وعلىٰ لساني تتردد الكلمات حائرة ولهى تضطرب ليس لها قرار، إنني أبحث عنك فلا أجدك!

وفي غمرة انسياب هواجسها يرن الهاتف.. ينتبه، يقف من شروده يتكلم إلى صاحبه عبد العزيز الدلاّل، هناك لقاء ضروري.. أرجو احتمالي يا عزيزتي، أنا رهن مشاغلي

الكثيرة. ويغيب عن عينيها.. لتسقط فوق قهوتها حبات دموعها في خيبة، تحدث نفسها بصمت «لا تقلقي، إن الزمن كفيل باحتواء جموحه سيأتي ذلك اليوم الذي يجالسك متبرماً.. إنه نزق الطموح،... لكن تلك النسمة الباردة تسري في عروقها المتوترة فتضفي عليها شيئاً من الإرتياح».

«مصطفىٰ، ما زالت كلماته تتردد في رأسها كالطيف الجميل، كان حلماً وانقضىٰ.. لقد نشأنا في بيت واحد وكبرنا مع الأيام والحب والعذاب، كان يكتب فيّ شعراً وينشده لي تحت هذه الشجرة الكبيرة التي حفرنا على جذعها حروف إسمينا.. كان يدافع عني حينما يضربني أحد أفراد الأسرة، يشدني من ضفيرتي الطويلة عندما أغضبه، وكلما بكيت يحمل دراهمه التي جمعها في حصالته ويشتري لي هديّة. وكبرت العائلة وانفصلت بيوتاتنا واحتجبت عنه عندما كبرت، كان يفهمني ويحس بي أكثر من أي مخلوق آخر» كانت مشاعري ناحيته أخوية، بريئة، فرؤيته مبعث ارتياحي، فلهذا عندما سافر إلى فرنسا لدراسته الحقوق، خلَّف في قلبي حطاماً من الآمال، وفتاتاً من الأماني المختلجة في حزن.

وبقيت بصماته تحفر في الذاكرة لم تستطع السنون رغم كل أحداثها أن تمحي تلك المشاعر من الوجدان، فهي تنبض في شراييني وتتدفق في عروقي لا تفتر ولا يعتريها ملل.

ويعود مصطفىٰ بعد هذه السنين حاملاً سوط الذكريات

ليلسعني به وأنا في قمة الحرمان، وينشب مخالبه الحاذقة في مساحات قلبي الفارغة ليزرع فيها مداد شعره من جديد، إنه يجهل حقيقتي عندما تترسب في أعماقي اللوعات والحسرات يظنها كالغبار تنفضه متىٰ شئت؟! يا إلهي ما سر تلك الأرواح عندما تمتزج ببعضها وتأبىٰ أن تنفصل، ظننت أنه قد نسي طيف الذكريات في غربته وأن الذي كان أحلام مراهق سرعان ما تتبدد بفعل البعد والنسيان، لكن الذي أراه هو أن السنين صقلت تلك الأطياف المتناثرة في لحن شجي يبعث في الروح حياة مشرقة مليئة بالأمل، عاد ثائراً علىٰ الواقع، متمرداً على التقاليد يمتطي حصانه الأبيض بشهامة حاملاً سيفه ببسالة ليقاتلهم ويأخذني إلىٰ رحيق الورد وبيادر الأحلام.

رن جرس الهاتف، انتفضت من ذلك الحلم. وكان المتحدث مصطفىٰ.

ـ كيف حالكِ يا هدىٰ.

تلعثمت، صعدت ضربات قلبها إلى الحلقوم.

ـ بخير

صمت كأنه يجتر الكلمات من الأعماق غصباً.

ـ كنتُ أود أن أهديك ديوان قصائدي الذي طبعته وترجمته إلى الفرنسية.

انعقد لسانها من الدهشة.

ـ أبهذه السرعة؟! إنه إنجاز عظيم يا مصطفىٰ، إنه مبعث افتخاري واعتزازي!

ـ كنت أريد أن أقرأ علىٰ مسامعكِ الإهداء.

اشتد ذعرها، إنّه يقترب من تلك المساحة الفارغة.

ـ إقرأها فيما بعد!

ـ أرجوكِ.

استسلمت بتردد

ـ تفضل

تنهد ثم أردف قائلاً:

ـ إلىٰ ملهمتي الحلم، زهرة عمري التي لن تذبل مهما فرقنا الزمن، وباعدت بيننا الأيام.

ارتعدت فرائصها، وتدفق الدم إلى شرايينها لا تدري أهي ينابيع سعادة أم لحظات خوف ساهمة تتخبط في المجهول.

تحشرجت الكلمات في لسانها وهي ترد عليه:

ـ كلمات رائعة وإهداء جميل.

وبدا كأنه يستزيد:

ـ جواب مقتضب، ليست كلمات «هدىٰ»، التي تشحذ عزيمتي وتستفز طموحاتي إنه انطباع سطحي لامرأة عادية.

ـ أرجوك يا مصطفى لا تحاصرني.

ـ هـذا يعنـي أن هنـاك شيئـاً مـن الضعـف يـدفعـك إلـى المقاومة.

أجابت بشيء من الغضب:

ـ أنا لست ضعيفة.

ويستثيرها أكثر:

ـ لو لم يكن في قلبك شيء من المقاومة ناحيتي لما استنفرت قواك بكل هذا العنف.

ـ وهل تظن من المناسب أن أبادلك الحاضر كما فعلت في الماضي؟ أنا الآن متزوجة وشرع الله بيني وبينك.. والضمير يلسعني بهذه الوقفات الخاطفة.

وبثقة في نفسه يرد:

ـ أنا لا أريد منك شيئاً.. أنت فقط مبعث ارتياحي ولا أحمل لك من جانبي أية نوايا يكتنفها الشك.

تعود تستجديه ثانية:

ـ أرجوك يا مصطفىٰ لم يعد في رأسي أية حجة «مع

السلامة»!

وتستغيث بزوجها.. بحاضرها.. بواقعها.. بطفلها.. لتنقذها من لسعات النحل التي تبث العسل المسموم بوخزاتٍ من الألم، إنها تشعر بدوار في رأسها.. مزيد من القهوة... «يا هايما» تأتي الخادمة بفنجان القهوة.. آه لو كنت أعرف أن وراء هذه الدعوة كل تلك الحكايات لما كنت قد لبيتها.

هل هذا هو المنعطف الذي كنتُ أبحث عنه لا بد أن أفرمل كل هذا الجموح وأحسب حساباً للغد الآتي.

* * *

جاء زوجها مترنحاً بنشوة النصر، فقد نجح في صفقته الأخيرة، وكل علامات الإبتهاج تتراقص علىٰ شفتيه اليابستين، ارتمىٰ بثقله فوق الكنبة يتنهد بارتياح أشار إلى هدىٰ:

ـ إجلسي إلى جانبي.

وربت على كتفها قائلاً:

ـ الليلة سأدعوكِ لتناول العشاء في أحد المطاعم الفخمة.

ازدردت ريقها وعقلها غائب، يتشتت بين الخيال والتمني، تبتسم في وهن، ومضات من الحب تتسرب في ظلمة حياتها فتغدو ساهمة:

يعود فيربت على كتفها ثانية

ـ ها . . ما بكِ صمتِ؟

تنفضُ سكوتها بضحكة مفتعلة .

ـ أتمنىٰ ذلك!

وفي هدأة الليل حيث السكون يخيّم على طرقات المدينة والأضواء تتراقص في فرح فوق المباني، ثمة ترنمات حزينة تختلج في صدرها، ما زالت عيونه تترصدها وتبحث عنها في جوف الليل «مصطفىٰ» يعزف في شرايينها أنشودة هادئة تشدها إلى ذكريات النخيل وانسياب النهر بين أصابعها لتدغدغ أحلامها البريئة .

وعلى المائدة جلسا، كل شيء يلفه الصمت، لم ينتبه صالح إلىٰ نحولها وذبول وجهها دفع إليها صحن السلطة قائلاً :

ـ أنت تحبين السلطة .

شدت نفساً عميقاً وأجابت :

ـ وماذا أحب أيضاً؟

اندهش . . لم يفهم مقصدها .

ـ أراكِ تحبين الخضار والفواكه!

فجأة وجدت نفسها تنفجر .

ـ هل حقاً أنا أعني لكَ شيئاً؟

تذمَّر، بدأت فرحته تتقلص على وجهه وينكمش في مكانه.

ـ لماذا تصرّين على النكد دائماً.

تسمّرت في مكانها.. مشدوهة تأخذها الظنون والوساوس.. تكبت صرخاتها.

ـ أنا أبحث معك مشكلة ولستُ..

قاطعها غاضباً:

ـ لقد تحولت فرحتي الى تعاسة.

أشار بعصبية إلى الصحون قائلاً:

ـ هيّا تناولي طعامك بسرعة لنعد إلى البيت.

شردت ببصرها بعيداً.. تتأوه «مصطفى» هل تسللت إلى كل ذرة في عروقي وتسربت إلى دمي فلم أعد قادرة على الخلاص منك.

رنّ جرس الهاتف في البيت، أجابت الخادمة «آلو.. آلو..» ألقيت السماعة «لا أحد يجيب».

وتكرر الأمر لمرات عدة طوال النهار، وفي إحدى المرات صودف أن ردت هدى على رنين الهاتف، صعقت، كان

الطرف الآخر «مصطفى».

وبلهفة محمومة سألها:

ـ لِمَا لا تأتين لزيارتنا، فقد مضت فترة طويلة دون أن نراكِ؟

غضبت.

ـ لا أظن أن هناك مناسبة تستدعي لذلك.

وفي رقة حالمة تفصح عن أشواق ذائبة قال:

ـ ألسنا بيت عمك، ألا نستحق منكِ الزيارة؟

تضطرب أحاسيسها بين الإقبال والإدبار، تحاول أن تصد هذا الزخم العاطفي المتدفق.. دعها للظروف.. مع السلامة.

استوقفها قائلاً:

ـ أرجوكِ اسمعيني لقد كتبتُ قصيدة جديدة تمنّيت أن أقرأها على مسامعكِ.

تأففت غاضبة:

ـ مصطفى أنت تصرّ على تعذيبي.

وبلسان رطب جميل يستميلها:

ـ هدى أنتِ شقيقتي المخلصة ولا أحمل لكِ إلا المشاعر النبيلة.

عنفته صارخة:

ـ لكنك تحاصرني بمضايقاتك، أنا زوجة ولا يليق بي أن أشاطرك هذه الأحاسيس.

راح يستميلها بتؤودة.

ـ هدى.. يا أغلىٰ مخلوقة عندي في هذا الوجود.

استبد بها القلق وتصاعد لهاثها المحموم، صاحت غاضبة:

ـ مصطفى ابتعد عني أرجوك.

أقفلت السماعة وهي ترتعد، أوشكت أن تسقط على الأرض لم تعد تستطيع أن تحمل ثقلها، جسدها يرتجف جلست على أقرب كرسي، انتبهت إليها الخادمة.

ـ ماذا أصابكِ يا سيّدتي؟

بحشرجات متقطعة هتفت:

ـ كوب من الماء... بسرعة.

وارتشفته حتى آخر قطرة لكي تهدىء من روعها.

إنها جرعات من الألم والأمل تختلط في كيانها، فتغدو ضربات قلبها مضطربة، تحاول جاهدة أن تفلت من قبضة هذا الشعور الذي يستعرض صدرها، وتدفن نفسها في جدران هذا

البيت، بيد أن كل جزء في روحها ينطق ويتنهّد ويفضح خلجاتها تتأوه بعذاب. . تلاشت الدقائق والساعات من ذاكرة الزمن وتاهت أفكارها في أحلام ضبابية فهي تذوب في هذا الشعور الذي أيقظ حواسها الهامدة، وتقفز على حبال وهمية حتى تصل إلى غاية مبهمة، فتجد نفسها تضيع وتتلاشى بين كفين قويتين تعصرها بقسوة. . أحاسيس متناغمة تعبث بحياتها وتصرعها بعنف.

يتأملها صالح بإشفاق:

- هدى أراكِ متعبة يا عزيزتي، أنتِ بحاجة الى قسطٍ من الراحة.

تنفض من جبينها قطرات الندى المتناثرة في فزع.

مطرقة الواقع توقظني من هذا الحلم.

يجلس صالح القرفصاء على فراشه وهو يقول:

- سنسافر إلى القاهرة هذا الصيف. . أنتِ مرهقة على غير عادتك!

تفرست وجهه بوجوم إنها لا تصدق ما ترى.

- هل تحس بي يا صالح؟

اقترب منها، ليلقي بظلال حنانه فوق رأسها ويهدهد أحزانها بعاطفة جيّاشة.

ـ كم أتمنى أن تكوني سعيدة.

وقعت عيناها، وانطلق حزنها الدفين يترنّم بنشيج عذب.

ـ لا تتركني يا صالح، الوحدة قاتلة، قربك الدائم مني يحميني من نفسي، يشعرني بالأمان، أنا أحس بالبرد، كل أطرافي ترتعش، أنا أحبك رغم غيابك الطويل.

كان يسمعها وهو مُطرق يتحسس معاناتها عن قرب ويخفت ضوء الأبجورة وتغدو أجواء الغرفة أجمل بكثير مما كانت.

هل يقول لها «أنا أحبك»! إنها أحرف محدودة تنساب على الألسن كلقمة تسوغها الألسن كل يوم.

استطرد بعد تفكير.

ـ لا ترهقي نفسكِ يا عزيزتي، لا أحب أن أرى عينيكِ باكيتين لأنهما أغلى شيء عندي.

عقدت الدهشة لسانها باتت في حيرة من أمرها، ماذا حدث؟ إنه رجل آخر، لقد انكسر الروتين، ضاعت الكلمات على شفتيها.

ـ صالح ماذا حدث لك؟

انطلق لسانه كالسيل الهادر:

ـ لقد أحسستُ بكِ هذه الأيام أكثر من أي وقت آخر، أصبحتِ أمامي جسداً فارغ الشعور، أبحث عنك فلا أجدكِ، كل شيء فيكِ غائب، بتُّ أشعر بوحدة، بضياع، لا أدري ماذا أصابكِ؟ فيما مضى كنتِ معي حزنكِ لي فرحكِ لي، حضوركِ لي، الآن أجدكِ تتلاشين، تشعرينني أنني انتهيت من حياتك.

غاص قلبها في صدرها، ما هذا الذي تسمعه هل هو ضرب من ضروب الخيال، صالح الرجل الذي كانت تظنه كتلة متكومة من البلادة يطلق الآن سهامه كالجمر في كل شبر من روحي، إنني لا أكاد أصدق، أهذا هو صالح؟! حدقت به طويلاً كأنها تتفحصه ثم تضمهُ في عينيها، وبعد صمت طويل قال:

ـ بالمناسبة اليوم اتصل عمك ودعانا على العشاء.

صرخت بعنف وهي تكاد تكمم فاه.

ـ أرجوك لا..

دهش متسائلاً:

ـ ولماذا؟!

ـ لأني أحبك وأحب أن أكون لك وحدك لا أحب أن يشاركني أحد فيك.

انبسطت أساريره..

ـ وما ضير في هذه الدعوة.

ـ إعتذر من أجلي.

ثم أطرقت هنيهة تفكر.. تختبر أعماقها في صمت «وما سرّ هروبي هل أخشى مصطفى فلأستجمع شجاعتي وأواجه الواقع بكل ثقة.. إنني الآن توّاقة الى رؤية مصطفى، فهذه اللمسة السحرية قد تسللت إلى ذلك الجسد الخامد فأيقظت في وجدانه نوراً كان قد خفت منذ سنين طويلة ودبّت في خلاياه الباردة ذلك الدفء الموهوم.. لكن صالح يشعرني بالأمان رغم بعده، هذا اللقاء القصير قد بدد وحشة الطريق وأنار جنبات روحي بضياء حبه الأصيل.. الشاعر نثر فوق وريقاتي الذابلة قطرات الندى لأتنهد مع الفجر بإطلالة زاهية رائعة، لكن الزوج هو الأرض الراسخة بالعطاء المتينة حتى الأعماق تمدّ جذوري رواءً رطباً يتسلل الى جذوعي وأغصاني ووريقاتي، فتتجدد ابتسامتي رغم الغيوم العابرة في سماء حياتي المتقلبة. فلماذا أخشى قطرات الندى، إنها لمسات عابرة لا تستطيع أن تقلعني من جذوري وأرضي وأصالتي.

شدت هدى عنقها بثقة:

ـ سنلبي هذه الدعوة يا صالح.

قهقه ملء قلبه:

ـ سبحان مغيّر الأحوال.

أطلقت تنهيدة عميقة مفعمة بالثقة .

ـ هذه الليلة . . لن يغيب القمر !

تمّت بحمد الله

المرأة... الحلم

سنوات طويلة وهو يبحث عن المرأة الحلم، تلك التي تتسلل الى عقله عبر إشراقة ندية تستهويها الروح، كل اللاتي عرفهن في مسيرة حياته نساء عاديات بلا روح، بلا كيان، ينشطن في جذبه واستلاب عقله، هذا الرجل المفكر الذي تعمق في النفس البشرية وغاص في سكناتها حتى الثمالة، ترددت عليه الكثير من النساء منهن الفاتنات، والمشهورات، وصاحبات الجاه والنفوذ ومن مختلف الأعمار والطبقات حتى التفتن إليه التفاتة ساخرة مشوبة بالسخط والتحسر «نشك أنك رجل» ويصفقن الباب وراءهن غاضبات.

تراهنت بعضهن على إيقاعه في مصيدة الحسن الأخّاذ، ودرس بعضهن كتب الفلسفة وتفنن في النطق والحديث ليسلبن لبه، لكنهن كمن ينفخن في رماد، يسخر وهو يهز يمناه «انهن

حمقاوات» تظن الواحدة منهنّ أن اشتعال الحواس يعني فهم الاعماق، ليس من أجل هذا يحيا الانسان فهو لا يبحث عن امرأة زينتها يد الخالق بأحلى تكوين أو شخصية خرافية، الثقافة والابداع شيء ما في كينونتها يختص بملامحها الداخلية الصادقة مع النفس، هذا الرجل الذ ي آمن بأن الحياة لا تخترق زمن المستقبل وتشحذ النفوس بمدد صاخب الا بذات مشتعلة وكيان صادق، فلما رآهن وجد الصادقة منهن تلهج بصدقها افتعالاً حتى تثير إعجابه. وكان يتمنى في أعماقه لو اختزنت كل هذا الافتعال وتصرفت بعفوية لا من أجله فحسب، بل لكي تثق بنفسها وتؤمن بشخصيتها حتى اللواتي يدعين الثقافة والمعرفة يتناولن أدوات المعرفة كالمرآة واحمر الشفاه تستمرىء المرآة حلاوة مذاقها على لسانها كمن تمضغ اللبان.

انطلقت حوله الإشاعات والصفات التي يندى لها الجبين لكنه يبتسم ودخان غليونه ينفخ في الهواء، لم تتعثر مبادئه أو تستثير حنقه كل هذه النعوت انها أشبه بحبات الزهر الأبيض تمنحه نداوة وجمالاً فيحدث نفسه «ان ما يسكن النفس ليس بالضرورة أن يكون محط إعجاب الآخرين وإيمانهم فلكل محتواه وجوهره». وأنا أجد الرجال مندفعين بحواسهم على حساب قيمهم الداخلية، لا يمنع ان تكون مخلوقاً بيد الخالق عز وجل وبيدك عصاة شفافة تقف بالمرصاد لتهز نفسك عندما يستهويها جموح الرغبات لتبني في داخلك معبداً صلباً متيناً لا

يهتز. تختال روحك في زهو عندما تنتصر على أديم الأرض، ففي الجوهر تكبر القيم وتطغى النظرة الصادقة فهنًّ يرونه رأي العين وهو يراهن بمرآة القلب حتى التقاها بالأمس تشتكي وحدتها بين الناس، وغربتها في هذا الزمن الضائع أدرك على الفور ان لهذه المخلوقة حساً غريباً يختلف عن جميع النساء، لم تتحدث بلسان آدمي، بل كانت تترنم بألحان ملائكية غريبة تتململ في أيامها وهي تستجدي الخير في سلوك الناس، تطمئن إليهم فترشق بالحجارة، تثق بهم فتطعن بألف سكين هكذا الدنيا أصبحت تضيق بالخير وتحمل فوق ظهرها أقدام الأشرار وتبسطها كل البسط تهتف نيِ غرابة «كم فعلت الخير يا أستاذ» فاتهم وألقم بألف حجر، وقلبي الشفاف الذي حملته بأجنحة الحمائم البيضاء ليحتوي كل الناس أغدر واتهم بالخيانة.. تنهدت، ثم ذرفت دموعها الرقراقة «في داخلي تسكن المحبة للناس حتى وصفت بالمعتوهة والساذجة قل لي يا سيدي هل نحن بخير أم ما زلنا نحبو في طريق الكمال؟ أظنني مخطئة في حق الناس لا أدري بالضبط ماذا أقول؟!» كان الأستاذ يقف منها موقف المشدوه الى مخلوقة جاءته من كوكب آخر، تأمل عينيها الذابلتين تحتويان دفء الدنيا وحنان الزمان وأساريرها الخرافية التي تدفعك دفعاً الى االتيه في روحها الشفافة، ازدرد ريقه وهو يتمتم من أين جئت يا امرأة؟

انبسطت ملامحها المتشنجة وابتسمت «ولدت في الزمن

الخطأ، ولدتني أمي من رحم الشقاء فجئت من عالم بعيد ينأى عن عالمكم حتى ضاقت بي السبل فقد هداني ضميري اليك . . يا حاكم الضمير والحكمة!».

وقف الاستاذ متهيباً شخصها فيمد لها يداً قوية قائلا :

دعينا نرحل الى كوكب آخر! فأنت من كنت أنتظرها سنين طويلة!

حديث الوسادة

تحت ظلال النور الخافتة يرقدان، وفي رقادهما شيء من القلق، همهماته حزينه لا تلبث أن تصمت، ثم تعود متمردة، كاد الحزن أن يتحول الى ثورة عارمة من الغضب لم يعد فراشها سوى جمرات ساخنة تحرقها حتى النخاع، بينما يدير الآخر ظهره إليها مدبراً وصمت هادىء يحوم حول أطياف من الذكريات، فجأة هتفت بصوت يرتجف ذعراً:

ـ لقد بدا واضحاً ان ثمة شيئاً عالقاً في ذاكرتك ناحيتها.

لم يعرها التفاتة، ومضت تزدرد ريقها:

ـ عيناك كانتا تحومان حولها وقلبك يكاد يخفق طرباً بين ضلوعك وأنت غائب في فرحتك.

سخر منها:

ـ انها أوهام .

تعض على شفتيها غيظاً :

ـ ليتني ما قبلت هذه الدعوة، ليتني تعللت بالمرض، لكنه الفضول والرغبة دفعاني الى معرفة غريمتي السابقة .

صرخ زوجها وهو يلتفت اليها متبرماً :

ـ انك مجنونة . . سوسن قد تزوجت وأنجبت ولم يعد بيننا أي شيء، لقد عقد قراننا لفترة وانفصلنا لعدم اتفاقنا وكل منا ذهب الى حال سبيله .

قاطعته بغيظ :

ـ ولكن في عينيك بريق من اللهفة والتمني .

زفر أنفاسه في الهواء :

ـ أظنك تهذين .

شدت على الغطاء بأناملها المرتجفة .

ـ لكنها كانت جميلة ، بل فاتنة القوام .

يقهقه بعنف :

ـ وما ذنبي أنا؟

صمتت . . حاولت أن تبحث عن خيوط جديدة لتنتج منها مشكلة تفجر مكامن غيرتها فوقفت بعصبية وأشعلت النور ثم

شدت قامتها أمام المرآة ونفخت في الهواء صاح مذعوراً:

ـ ما بك هل جننت؟

ـ أسألك وأستحلفك بالله أن تكون صادقاً من هي الأجمل أنا أم هي؟

سحب الغطاء على وجهه متذمراً:

ـ عودي لنومك أيتها المعتوهة.

صرخت مغتاظة:

ـ أجبني ولا تهرب من السؤال.

جذب نفساً عميقاً:

لكل منكما جمالها الخاص.

حدجته بنظرة مريبة.

ـ وسيلة سهلة للهروب.

تمتم ساخراً:

ـ فليكمل الله عقلك يا امرأة.

عادت لفراشها.. أطفأت النور، ولم تكن خيالاتها قد استقرت، ما زالت الوساوس تتصارع في رأسها، وتقض مضجعها، تنهدت من الأعماق، وعبثاً حاولت أن تستسلم لسلطان النوم بينما زوجها يضع رأسه على الوسادة باسترخاء

وهدوء ويتذكر أحداث الليلة، فسوسن كانت تداري كبرياءها، وترسم خطوط سعادتها الوهم أمام مرأى الناس لتقتنص إعجابهم ودهشتهم، ففهم من كل إشاراتها انها قد خسرته انه لم يكن يطالعها بعينين والهتين إنما كان يبحث عن مكانته في حياتها فوجد ضالته في كل إيماءاتها. . وتذكر لحظة الانفصال عندما هتف بعصبية انك لا تصلح زوجاً. . ودارت السنوات دورتها ليجد هاتين العينين تعتذران في إذلال.

قصة منى

صدفة . .

لقيتها بحواس حائرة . . تتسلل الأفكار الى رأسي ما بين مخطئة أو صادقة . . كانت تجلس على مكتبها البسيط تطبع على الآلة الكاتبة في إحدى الوزارات لم تكن تلتفت حولها بدت هادئة على غير عادتها . . نقضت هذا الخاطر من رأسي قد لا تكون هي التي أعنيها لكن الفضول شدني إليها ورغبة عالقة في ذهني لأستوثق من ظني . . اقتربت مترددة خجلة سألتها : من؟ منى؟

بتؤودة رفعت رأسها وابتسمت هاتفة : «ابتسام!» نهضت مندهشة، ضمتني اليها بعنف وحرارة . . تسمّرت في مكاني ونظراتها المنطفئة تسترجع ذكرياتنا المنبعثة من عمق الأيام التي مضت، استأذنتني للحظة «سأطلب لك فنجان قهوة» . .

بينما شردت هنيهات حيث لقاؤنا الأول عندما تعرفت عليها في إحدى ردهات الكلية، شابة نشطة تنضح حيوية، طموحة تصارع الأيام لتعطي القيمة للحياة لتحقق كل شيء يدور في خلدها الفياض، خاطبت الأساتذة بعقل متفتح يقظ يستهضم الأشياء والمعلومات بحذاقة أذهلت الجميع وتفوقت وتسلقت بإرادة فذة قوية وصلت القمم، وتخصصت بالعلوم السياسية والاقتصاد، وكتبت البحوث وناقشت علماء وحاورت مفكرين حتى ظنها الجميع انها مؤهلة للعمل في إحدى السفارات.

لم تهدأ أو تتوار خشية النقد والاتهامات التي لاحقتها حسداً وغيرة بل استمدت روح الابداع من ثقتها العميقة بنفسها.

عدت من شرودي على صوتها الخافت وهي تقدم لي فنجان القهوة قائلة: قد يكون هذا اللقاء هو البداية لتجديد علاقتنا ثانية.

أردفت بتعجب وأنا أتطلع بتمعن الى وجهها الكئيب يعكس روحاً محببة: إن شاء الله تستمر علاقتنا..

وجهها الجميل الذي يحترق حمرة تحت أشعة الشمس وهي تسطع عليها عندما تغدو وتروح في ردهات الكلية، وعيناها البراقتان اللتان أشبه بعيني الأسد.. حادة، براقة..

متحدية.

استطردت منى تسألني: ما أخبارك؟

ـ تخرجت وتزوجت وأنجبت وهكذا.. ثم عملت في التدريس..

كنت محرجة، أحاول أن أصيغ سؤالي بطريقة ودية، لا تجرحها بيد أنها انتشلتني من هذه الحيرة وأردفت وهي تشهق نفساً عميقاً!..

.. أظنني عرفت ما يدور في خلدك فاختصرت لك الطريق.

بدوت محرجة، صرت أعبث بأصابع يدي في قلق لأني أعرف أن منى، مخلوقة حساسة جداً وصعب الدخول في عالمها النائي وتناقضاتها العميقة.

شردت ببصرها بعيداً تصطاد خيوطها المعقدة في ذهنها المتعب، تنفث أنفاسها بضيق وتبرّم.

ثم قالت: ربما تعجبين كيف تغيرت؟ ألحظ الدهشة معقودة في حاجبيك المنتفخين وعينيك المحدجتين، هذا يسعدني كثيراً ان أجد في هذا الزمان من يحس بي ويفهم ما في داخلي دونما أن يقتحم عالمي المنكب على نفسه، وقلبي المنكفىء على ذاته. تنهدت لأستريح وانبسطت أساريري

كعادتها وبدأت أحتسي قهوتي، تكلمي لترتاحي فكلي أذن صاغية إليكِ. .

قالت: تخرجت بامتياز وكنت الأولى على دفعتي، وفي صدري يمور الطموح، لم تكن الشهادة هي النهاية بل كانت البداية للدخول في عالم معقد متناقض نعيش في وسطه بألغاز غامضة كان لي فضول كبير لأقتحم هذه الحجب وأمزق الغلالة المقرفة التي تضعنا دوماً أمام علامات استفهام مبهمة ودخلت الصحف لأكتب في مجال تخصصي، رفضوني، لملمت أشلائي لأعمل في الاعلام، طردوني بدبلوماسية رائعة! وقدمت كل ما يثبت هويتي بأني إنسانة مخلصة لربي وضميري وبلدي فلم هذا التشرد وأنا في وسط أهلي؟، عندما أقول الحقيقة بحرارة ألمح الوجوه مكفهرة تبتسم لي ابتسامة صفراء خبيثة لزجة، تكتم أنفاسي. . تعبت. ان آثاري موزعة في كل جزء من بلدي، لكن هناك الخبثاء الذين يلتفون في عباءات وشرانق مزرية يختبيء فيها النفاق والغدر يلتهمون المبدعين والابداع ويدوسونهم بالأقدام.

توفي والدي وكنت المسؤولة عن اخوتي الصغار، فرفضت الزواج وقدمت على وظيفة بسيطة، لم أكن أقنع بها، لكنها الوسيلة الوحيدة لأعيل أسرتي، أصبح الآن المال، الدنانير وسيلتي الوحيدة وغايتي البعيدة، فاختنقت في أعماقي كل صرخة، دمعة، وضاق بي الزمان والمكان. . فرضيت بهذا

الوضع، فأكلتني السنون وامتصت حيويتي لتمزق نسيج الحرير من وجهي فأهملت صحتي وانطفأت شمعتي، وها أنا أقاسي الوحدة والعذاب، لا زوج، لا طموح، لا هدف. .

انفرطت دموعي رغماً عني، لم أكن أعتقد في يوم ما أن ألتقي منى.

جثة هامدة دون روح، تمثال صموته يتحطم في الداخل حتى تحجر. . انها ليست قصة منى لوحدها. . فهناك. . في هذا البلد ألف منى وألف شاب أبدعوا وتحرروا من عالمهم المتحشرج بلعنات المادة. . ليطفح الزيف فوق السطح وتبقى الحقيقة مخبوءة في جذور عميقة لم تتفجر في أرض الواقع.

قصة هذا الرجل

حينما تعين محمد في وظيفته الجديدة راح يصب كل مقدراته العلمية والفكرية فيها يستيقظ كل يوم بنشاط محموم. . يـدب الأرض بـرجليـه واثقـاً ان هنـاك مشـاغـل كثيـرة تستثيـر اهتمامه، تتلقى زوجته هيفاء وجهه المشرق بابتسامة مبهرة، يشرب الشاي على عجل ويمضي مصراً على اختراق الزمن.

عندما يجلس على مكتبه يندهش من تلك العيون التي تحدق به صامتة كأنها تحمل شيئاً من التهكم، عقد حاجبيه ومثل قامته يتنفس الصعداء «ما بكم تنظرون إلي وكأني آت من كوكب آخر».

قهقه أحدهم وهو يحتسي الشاي وفي يده الأخرى قطعة بسكويت.

«خذ هذه القطعة، الدنيا لا تحتمل كل هذه الجدية».

أدار محمد ظهره ساخراً «هذه فلسفة جديدة».

أجاب صاحبه «ستلقنك الأيام درساً لن تنساه».

هزّ كتفيه غير مبال.

* * *

أوراق مبعثرة يبحث فيها بدقة، يستكشف أموراً غريبة.. أرقام تتضارب مع الواقع المفروض.. سحب بعضها وتوجه الى المسؤول.. السكرتيرة الحسناء تصده بغنج «المدير مشغول، عنده اجتماع».

أطلق تنهداته في غضب «أرجوك الأمر لا يحتمل التأجيل».

بعنف اقتحم المكتب، كان المدير يجلس على كرسيه الهزاز يستدير به حيث مصالحه الخاصة يهمس في تلفونه مازحاً تحمل ساقاه الكبيرتان كرشاً متضخمة تكاد تغوص حتى الأعماق.

صرخ غاضباً «ما هذا؟ كيف اقتحمت مكتبي».

ازدرد محمد ريقه وهو يضع الأوراق بيدين مرتعشتين، كأنه يحمل عبئاً كالجبال فوق كتفيه.

«يا حضرة المدير، ثمة تلاعب في الميزانية».

بدا المدير مندهشاً، طافت على وجهه سحابة من الضيق والحيرة، بددها بابتسامة صفراء وحاول أن يفتعل الدهشة «صحيح؟! هاتها لأرى!» التقطها المدير بتخابث وهو ينظر الى محمد مذعوراً.

«إذهب الآن، دعني أطالعها».

* * *

عاد محمد الى مكتبه، منتفخ الصدر كأنه حقق أعظم انتصار، هذا الخطأ قد وقع سهواً، كان يحتاج الى عينين حاذقتين تسبران الأرقام بدقة وحذر.

بينما العيون تغمز في همس غريب، تتراءى خلف بساطته وعفويته تتهكم عليه حتى الثمالة، رجل أبله، لا يتماشى وقوانين هذا الزمان.

فثمة قرارات جديدة تصدرها الشركة في بعض الأحيان، يتأوه حينما يعلم فحواها، انها شدت البساط من تحت أقدام الفقراء، وتكتم صرختهم علانية والرؤوس مطأطئة والأعناق منكسرة، فتحاجج محمد مع المسؤولين واعترض حتى التف حوله بعض الأشخاص ممن تضرروا من هذه القرارات.

المدير يتذمر، لا يكاد يحتوي هذه المشكلات حتى تظهر

في الأفق، قضايا صغيرة تستحوذ على اهتمام الموظفين، وتصبح محور حديثهم في الأقسام.

* * *

في لقائه الثاني مع المدير.. هنأه تهنئة ثعلب يضمر في رأسه خطة محكمة للقضاء عليه وعلى وجهه اللزج تتقافز ابتسامات حذرة.

ـ «لقد نلت درجة كبيرة وستنقلك الشركة الى مركز حساس يتطلب منك مجهوداً ومثابرة، لكن ثمة عيب قد ينغصك!».

استدرك محمد دون أن ينفعل: «ما هو؟».

ـ المنطقة نائية. لكن راتبك سيتضاعف.

علقت الفكرة في رأس محمد لكنه مضى يعتذر وهو يستحضر مسؤولياته: «هناك مشكلات صغيرة تحتاجني فلا أستطيع التخلي عنها» ثم صمت.. وتناهت الى ذهنه فكرة.

«بالمناسبة ماذا فعلت بموضوع الميزانية؟».

رسم المدير على شفتيه ابتسامة عريضة «لا تقلق بالك فقد تداركنا الأمر!».

ـ هل أستطيع الاطلاع عليها؟

غضب المدير كاد أن ينفث بخار سخطه المتأجج في وجه

هذا المعتوه! «هذا الأمر لا يعنيك الآن!».

* * *

لم يكن الأمر يحتمل كل هذا الصبر، لا بد أن تفعل الإدارة شيئاً لكتمان هذه الفضائح، الموظفون الخاملون الذين استطعموا شرب الشاي في مكاتبهم قد دبت الحياة فيهم.. واستيقظت هممهم وراح كل واحد منهم يبحث عن ذاته منطفئة الطموح، كل شيء يستحثهم الآن على تطوير أنفسهم ومطالبة حقوقهم الضائعة، لمَ كل هذا الخمول؟ لمَ كل هذا الخمود؟ لمَ لا نخطط قضايانا من جديد بعقل يقظ؟.. وبدأ الفراشون يتهامسون في مطابخهم، بعضهم يقول لبعض: اننا نعمل لساعات إضافية دون مكافأة.. لقد هدرت حقوقنا، فلنتحد ونؤسس جمعية خاصة بنا.

ما هذا الذي يحدث؟ تمرد! سخط! ماذا يريد هؤلاء الشرذمة! يجلسون على مكاتبهم دون عمل ويقبضون رواتب عالية. وهؤلاء الحفاة الذين جاؤوا من بلادهم يتندرون على عقولنا.. ينبغي أن نطرد المصدر المثير لهذه المشاكل. لكن الطرد عملية ملحوظة قد تدان فيها الإدارة، النقل الى تلك المنطقة النائية حيث المسافات البعيدة التي تنهب طموحه وتستهلك جموحه.

فتقرر نقل محمد الى هناك.. وفي غيبته أثيرت الشائعات

والأقاويل والفتن، لقد كان رجلاً مشكوكاً في أمره.. يقولون انه دخل لفترة مستشفى الأمراض العصبية، ربما هو من الطبقة المسحوقة التي تحقد على الطبقات الثرية.. ثمة جهة مجهولة المصدر تخطط له.. فهو يعمل لحسابها من أجل غايات كبرى.

وما هي إلا أيام حتى تلقت الإدارة أخباراً حول فضوله المتعطش الى فحص أنابيب النفط.. انها تمتد الى بطن الحوت. وهذه الماكينات المتآكلة تدور مع الزمن في خجل وحياء، لأنها تخلفت عن الركب، ولم تسبق مثيلاتها من الأشياء.

***

تعجب محمد كثيراً، عقله المسكين يئنّ كل يوم، لا يعلم كيف يهدىء من روعه. انه يحاول ان يلحم تلك الثقوب لكن سرعان ما تنفجر اخرى في وجهه، تشده هيفاء من يده قائلة «دعك من هذه السخافات وهات راتبك الجديد هذا لأشتري قرط الألماس الذي أعجبني بالأمس.

يضع المسكين في كفها ألف دينار وهو يلوي بوزه ساخطاً «حتى أنت حمقاء يا امرأة» لا شيء يستأثر قلبه وعقله سوى حب واحد. انه يحب عمله، ولفرط حبه وتفانيه تعرض لحادث رهيب وهو في طريقه الى العمل.

تلقت هيفاء الخبر بالهاتف «عظم الله لك الأجر، فقد توفي محمد بحادث!».

خبطت على صدرها بفزع حتى سقطت اقراطها على الأرض.

راحت الألسن الطويلة تنبش الأسرار.. ما هو سبب الحادث؟ هل هو تصادم؟ ماذا وراء محمد؟

لقد انقلبت السيارة به في الطريق الصحراوي.

كان يقود سيارته بسرعة جنونية!

انه سكران.. دائماً يتعاطى الخمور.. فلم تستبن الرؤيا بعد!

تنهد الناس وليس كلهم.. في أسى «الحمد لله لقد هدأت العاصفة»! انه قضاء وقدر

تمثال من الشمع

وفجـأة يـدور الـزمـان دورتـه الحـزينـة ويمضـي شـريـط الذكريات متلألئاً بلمعة كاذبة ظننتها فيما مضى عرشاً جميلاً يزغرد في فؤادي، سلمت هذا البريق ووددت لو أعود ثانية الى تلك الغرفة الموحشة في ذلك البيت العتيق ألملم نفسي في جدرانه الرطبة تخفق فيه نبضات قلبي بثبات وتؤدة لأطل بوهج صادق عبر نافذة الحلم على تلك الحارة المتآكلة، قد خط عليها الزمن خطوطاً متعرجة وسحنة طينية صدئة.

كان لها جمال فاتن يبهر البصر ومسحة بريئة تدفع الإنسان إلى الارتياح من النظرة الأولى وفي عقلها ترقد موهبة علمية رائعة، حصدت الشهادات البارعة في الكمبيوتر حتى تنـازعـت عليهـا الشـركـات والإدارات بـرواتـب مغـريـة لتعمـل مهندسة كمبيوتر في مادتها الصعبة، بينما جمالها يقف شامخاً

يحفزها بسياط الرغبة لتنحني لإرادته وجبروته، فالمرأة تشحذ همتها وتستحث عزيمتها كي تتقدم الى احدى دور الأزياء لتستعرض هذا الكنز المخبوء الذي غاص بين الجدران الصماء، فالعين تناديها الى عالم الشهرة والتألق والأضواء بينما عقلها يتألم حزناً لهذا الاندفاع الخاسر، فطريق الأضواء محفوف بالورود والرياحين وستصبح نجمة في أشهر قليلة ستبتسم الدنيا في وجهها، هكذا حدثتها نفسها. . الكمبيوتر قضية رجل، عملة صعبة لا تتناسب مع أنوثتها ورقتها، فليخرس صوت العقل، انه نقطة ضائعة في بحر الدنيا ومتاعها. وتبلدت أمها لهذه الرغبة المجنونة التي نسج لها العنكبوت خيوطاً وهمية فوق رأسها المحموم، تصرخ في وجهها «الطريق ملعون أنت بنت عائلة، ودرب جهنم محفوف بالشهوات ثم تقاليدنا لا تسمح لنا بالسير في هذا الخطر» تسخر آمال من أمها وتدير ظهرها مازحة «ننتقل من عالم الهبوط الى دنيا الصعود. . » تقاطعها أمها. . «بوسيلة رخيصة».

وتتشدق آمال بلسان لزج عاف كل المعاني النبيلة «انه جمالي وشبابي»، ففعلت كل ما يدور برأسها من أحلام وآماني رخيصة. . استوقفتها مديرة الوكالة وهي تعرض جمالها بخيلاء. . انبهرت بها وصفقت بفرح وهي تصرخ ستصبحين نجمة هذا العام. . فتم تشكيلها بصورة جديدة، إذ تمّ إلغاء إرادتها وحسها في أول الأمر وانصاعت لهم انصياع أعمى حتى

قد ظنت نفسها دمية تتلاعب بها الأيادي دون الاكتراث لصوت مشاعرها ولذوقها، قصّوا شعرها الأسود الناعم وصبغوه بلون أشقر، ثم اجروا على أسنانها بعض التعديلات بل وضعوا لها جدولاً جديداً لنظام أكلها، تحسباً لأي زوائد في جسدها، عادت ذات يوم الى أمها بوجه منهك وأعصاب مرهقة، فهي الآن ستسافر الى إحدى العواصم الأوروبية لعرض الأزياء ولا بد من إعادة صياغتها بصورة أكثر قبولاً في نفوس الرجال!

وأقبلت على عالم جديد يخطف الأبصار فالتف حولها الأثرياء والنجوم ورجال الأعمال وانهالت عليها العروض من كل حدب وصوب فخطفتها شركات الاعلان، والمجلات لتنطلق هائمة في عالم السحاب البرجوازي، حتى انطفأت نظرتها البريئة ليطل من عينيها بريق تائه يسبح في الظلام، بينما الأموال تسيل بين يديها لا تعرف كيف تحصيها، ثم انطلقت الى فيلّا جميلة مطلة على البحر، ورنين التلفون لا ينقطع عن بيتها حتى المخرجون عرضوا عليها التمثيل فأصبح وجهها مألوفاً في كل بيت وصورتها صارت حلم كل فتاة، أينما تولي وجهك ترى إطلالة آمال، لكنها اكتشفت ان البلسم الذي ظنته فيما مضى ندى عذباً، يذوب في قلبها لم يكن إلا سمّاً قاتلاً ينسلُّ الى شرايينها.

ماتت أمها وهي غاضبة عليها. . تلعنها في دعواتها كل يوم، الوحدة تقتلها والوحشة تعصرها في كل جانب. . سنوات

وهي تجري منهكة لا يهدأ لها بال ولا يرتاح لها ضمير. كلما رقدت في فراشها تنساب دموعها ساخنة تتذكر انها تخوض في بحر عميق ميت كل الكائنات الحية لا تعيش فيه.. نفسها يضيق بها وتكاد تختنق رغم فسحة الأمل، الوساوس تقتلها وقد شارفت على الأربعين وهي دون زوج أو طفل.. كل هؤلاء الرجال الذين التفّوا حولها لم يبحثوا فيها إلا عن دمية للتسلية في لحظات قصار ثم سرعان ما يذهبون الى دمية أكثر جمالاً.. عاشت حقيقة هذه الأضواء لتكتشف ان ليس كل ما يلمع ذهباً.. انها تبحث عن الاستقرار والأسرة.. فكلما خطا الزمن خطوة الى الأمام يقل بعض من الشهرة والمعجبين ويصمت التلفون لفترات طويلة وتنطفىء شمعة من عمرها، بينما التجاعيد تزحف زحفاً سريعاً على وجهها رغم حرصها عليه، الوزن يزداد رغم حرب الجوع الذي تفرضه على معدتها.. ففي كل مرة تسقط مغشياً عليها بسبب الضعف العام.

ذات يوم وهي تتبختر في مشيتها المتعالية في إحدى الحفلات انتبهت الى الحضور يمدون أعناقهم ملتفين الى باب الصالون الكبير وقد دخلت على الفور فتاة حسناء بارعة الجمال أذهلت الجميع فالتفوا حولها مشدوهين، صبية صغيرة نضرة تتألق بحيوية وجمال وقامة رشيقة متناسقة، ازداد نبض آمال هلعاً، فقد تركها الجميع، لم تعد سوى رقم بائس ضمن الأرقام التي مضت ونسيها الزمان.

انسحبت غاضبة، كأن الواقع صفعها صفعة قوية، ألهب كل حواسها العدوانية. . فارتمت على كنبتها مضطربة، ممزقة، تخفت في روحها تلك الأضواء الناعمة، وتتحسس انها في موكب حزين يعلن عن تشييع جنازة الى قبر من القبور المنسية، لقد تخلى عنها الصمود وفارقتها القوة عندما فرطت في عقلها وإرادتها. . وتذكرت كلمات أمها وصباها المحموم وعنادها وغـرورهـا، الطيـن لا يـدوم علـى حـال، ودوام الحـال مـن المحال. وها هي تسقط كزهرة ذابلة تتفتت وريقاتها كلما داعبها نسيم أو سخرت منها ريح عاصفة. أدمنت على التدخين والحبوب المنومة، لعلها تستريح من عناء التفكير لم يعد الرجال يلتفتون اليها وهم أمام باقات منوعة من الجميلات، فبريقها الزائف قد انطفأ.

لقد أصبحت هيكلاً فارغاً من المحتوى فقلبها قد كفنته وخنقت صرخته الصادقة حتى جفت مشاعرها، وتبلدت أحاسيسها ولم يعد في مقدورها أن تختار سنوات وهي محض جسـد، تمثـال مـن الشمـع محنـط الإرادة، تحكمـوا حتـى فـي أشيائها القدرية لتتحول الى مسخ. . وأصبح جمالها زائفاً معطل التأثير، ففي اليوم الذي تخلي فيه وجهها من المساحيق لا تستطيع أن تنظر في المرآة تظن نفسها شبحاً مرعباً. . فقد ضاقت عيناها الواسعتان وتشققت شفتاها الطريتان وذبل لونها. . وامتلأ عودها. . انها الحقيقة المرة.

حاولت أن تسترد روحها وبقايا إرادتها المندثرة تحت ركام الأحزان لعل عقلها الواهن يستفيق من سبات العدم.. كل شيء قد تبعثر، ليس هناك طريق واضحة تسير فيها على هوادة.. وبداية حقيقية لسقوط آثم، وبقايا لروح هامدة.. ولعنة الله على الجسد وليت مصابيح العقل باقية لاختارت الطريق من جديد.. ولا كانت النهاية على هذه الشاكلة الحزينة.

مناجاة الليل

حينما يسكن الليل تخرس الأصوات في جوف الزمن وتسكب السماء لحناً رائعاً في الأثير الصامت. . وأرى ملامح الأرض حزينة تشحن الدموع في قلبي النازف، وفي الهدأة الموحشة يصمت العصفور الذي طالما غنّى أغنية الصباح المشرقة فوق غصن شجرة اللبلاب التي زرعتها فيما مضى قرب نافذتي، وها هو القمر مكتمل النور يبتسم لهؤلاء الأشقياء الذين يكابدون ظلم القساة. . مترنمين ترانيم الرحمة، لعل سياط الساعة تلهب تلك النفوس القابعة في قصور من ذهب، فبسمة القمر الوضيئة تهمس في عبق الرياحين والأزهار صلاة إلهية معطاءة تثير الدفء في القلب لتمنح للأيام لوناً هادئاً وملاحة تستحق المسالمة لست وحدك يا إنسان تبكي، لست وحدك كائناً ترقى هنا مطحوناً تتنفس من رئة سوداء قد احتوت

دخان المدينة وضجيج صرخاتها فباتت أنفاسها لاهثة، متعبة، ثم ذلك القلب المنكفىء بألم يتهادى بين الأضلع حائراً ساعة يتيه في حزن مدلل لعل هناك من يدغدغ دماءه الراكدة.. وآدميته الخرساء لتعرف للحياة معنى، وساعة أخرى يتشنج ويبصق كل فرحة تزغرد في ثناياه، اسمع همساً دافئاً يأتيني من ذلك الشعار وهو يعزف ناياً قديماً تحت سقف بيت عتيق في المزرعة القريبة انه يخدر إحساسي بالغربة وينقش في ضلوعي ذكريات الليالي البعيدة، أحسست بدموعه تقترب مني، كأنها تلامس خدي وتحرقه، ما أجمل الليل عندما يكبت الناس صرخاتهم الجوفاء ويلوذون في أعشاشهم وأحراشهم صامتين يتبادلون الأساطير والقصص اليومية تحت ضوء القمر.. لعلهم يرون في السماء السوداء ثقوباً بيضاء تدلهم الى خط النهاية.. حيث تنتهي الحياة الأسطورة وبغطاء إلهي قدري لقد تركنا الحلم، هجرنا العاطفة، نزعنا ثوب الحيوية من أرواحنا المكبلة بقيود المادة.. وجمال العطاءات الربانية، لنتأملها، ونبتسم لها وهذه السماء الرحبة تحملنا بجناحيها الى مدارج الكمال نحو نفحات الملائكة ومنعطفات نورانية تخترق الحدود والأبعاد والنهايات، فثمة عالم قادم، رغماً عني.. وعنهم.. سينسلخ ثوب الحداد القاتم.. وتجف الدموع الحمراء.. لتكسوه إطلالة خافتة تحمل في جنبها حزم النور المتوقدة البيضاء يسفر هذا الوجود عن إشراقة يوم جديد.. وزمن آخر.. عبأت في

رئتي ما استطعت من هواء. . استنشقت الليل كله في صدري من ملامحه المتغيرة وأقنعت نفسي ان دوام الحال من المحال، ولكل شيء نهاية. . فبعد الليل يأتي الفجر. . رغماً عني ورغماً عنكم، ورغم الزمن. . رغم كل تحديات الإنسان. . لا بد بعد الحزن من فرح، ولا بد بعد الهم من مرح. . كل شيء ينقضي ويحل محله قضاء آخر. . انها سنة الحياة والكون. . وكفى بالليل واعظاً.

البدينة

عندما انتهت من غسيل الأطباق وترتيب الملابس اتجهت الى ركن آخر من المنزل وفي طريقها انتبهت الى صورتها معلقة على جدار الصالون، تسمرت في مكانها لا تدري سرّ شرودها هذه المرة فصورتها باتت لا تبارح مكانها منذ سنوات طويلة، تنهدت، كم كنت جميلة، وهذا العنق الطويل الذي تفاخرت به كثيراً وقدي الممشوق، أين كل هذا الآن؟! لم أعد سوى كتلة متورمة من الشحم، قد اختفت معالم جسدي وأصبح كل شيء فيَّ مقرفاً، تناهى الى سمعها صوت الأولاد وهم يتشاجرون، لم تعد تحتمل كل هذا العنف، صرخت بأعلى صوتها.. أخرسوا وإلا ضربتكم، لقد هربت الشغالة من البيت لم تعد تحتمل ضغوط العمل، ستة أولاد وحجرات واسعة في البيت ثم حديقته كبيرة ومرتب صغير لا يكافىء أتعابها، ما زال صوت

الأولاد مزعجاً، سارعت ناحيتهم وأرطالها المتكومة تجر وراءها معاناة ثقيلة وهموماً لا تكاد تنتهي، فقد ترامت الوسائد هنا وهناك وتناثرت ألعابهم على أرض الحجرة، شدت أحدهم من ذراعه صارخة «لمَ فعلتم كل هذا؟» تقاذفوا التهمة على بعضهم البعض، أقفلت راجعة فسمعت قهقهاتهم الساخرة، إلتفتت إليهم ثانية فصمتوا وعبثاً حاولوا السكوت، استطردت بغيظ «قلة أدب».

تذكرت أن قميص زوجها مقطوع الأزرار فأخذت تبحث عن عدة الخياطة، لقد نسيت أين وضعتها آخر مرة، فتحت الأدراج وعبثت في خزانات الثياب بيد أن فكرها شارد وعقلها غائب، ما زالت صورتها المعلقة على الحائط تتراقص في خيالها كالطيف الندي، وفي غرفة النوم وقفت أمام مرآتها، يا للذهول أكل هذا هو جسدي؟! كأنه قد تكاثر وتبرعم فتحول الى هذا الكوم الهائل، من أناملها تتحسس عنقها وقد غاصت عظامه في طبقات دهنية تترجم آثار الزمن فوق رأسها الكئيب، شيء في صدرها يتناغم مع هذه الأحاسيس المتولدة من ضغط البيت، كم تتمنى أن ترتدي ثوباً ضيقاً يفسر خصرها ويحسر مفاتنها كما كانت تفعل فيما مضى، انتبهت حاولت ان تنفض هذه الخواطر، لم تعد تدري عن ماذا تبحث؟! أفزعها صوت ولدها الكبير ينادي «ماما أشم رائحة الرز يحترق!» عضت شفتيها مستاءة، هبت مسرعة، أطفأت النار، تململت.. «يا

إلهي أنا اليوم مجهدة على غير عادتي، لا أطيق نفسي».. غضبت، ثارت، تود لو تقطع نفسها، تريد أن تنهال على أولادها ضرباً.. هذا اليوم مشؤوم، كل شيء فيه مزعج، البيت ما زال متسخاً، أولادي لم أعد أحبهم! أقفلت راجعة الى غرفة نومها ورقدت على فراشها تفكر، ليس سهلاً أن يقول لي: «لقد أصبحت بدينة جداًا!» وذلك عندما كنا نرى فيلم البارحة، وظهرت الممثلة في كامل فتنتها ورشاقتها.. أحسسْت بإهانة، أحسست بعينيه القاسيتين تصفعان كل خلية في جسدي، شيء في ذهنه يقارن.. نظراته فضحت مكامن سره.. لهفته وهو يطالع البطلة بإعجاب، شعرت بحدقتيه تتسعان دهشة بها وتضيقان تبرماً بي، كرهت نفسي وكرهته. وقرفت من حياتي، لقد كنت فيما مضى أجمل بكثير من هذه الممثلة وهو يعلم ذلك وطيلة هذه السنين لم يعبر فيها عن إعجابه وزهوه. كنت «أشحت» الإطراء منه والتمس حبه من إيماءاته، فلم أعرف نفسي جميلة إلا من عيون الناس حولي، وعندما أسأله عن ذلك يبتسم بهدوء قائلاً «انهم يخدعونك» سلبني ثقتي في نفسي، أهملني فأهملت زينتي وجسدي وحملت طوراً بعد طور والتهمت الأطعمة بشراهة، لأني ما لقيت منه إلا الصد، رجل تقليدي لا يعرف ان للمرأة قلباً يبحث عن سحر الأشواق ولوعة القلب.. احترقت وبات في صدري رماد من الحسرات قد تناثرت في زوايا حياتي.. وعشت معه أماً وخادمة وفقدت

الدفء العاطفي الذي تحنّ له كل امرأة، حتى هوى عليَّ الزمن بمعاول كئيبة تهدم فرحتي ثم لا تلبث أن تصدع رأسي وتوقعني في متاهات ليس لها نهاية.

سمعت طرقاً على الباب، مسحت دموعها ووثبت منزعجة «مَن الطارق؟».

قال زوجها مندهشاً «أنا حسن إفتحي الباب».

فتحت الباب، قال وهو يخلع ثيابه كعادته الرتيبة، «أعدي الغداء، فأنا جائع».

زمت شفتيها وقالت بوجوم: «لم أطبخ الغداء اليوم».

حدجها بنظرة غاضبة، «ولماذا؟».

ـ أنا متعبة وأحتاج الى الراحة.. إذهب لتشتري الغداء من المطعم.

ـ ولماذا لم تخبريني مسبقاً لآتي بالطعام وأنا في طريقي الى البيت؟!

أشاحت بيدها غاضبة، متبرمة.

ـ مللت هذا الروتين.. مللت هذا الدور المزعج.

عقد حاجبيه دهشة.

ـ ما بكِ، اليوم على غير عادتك؟!

سأحمل حقيبتي وأذهب الى بيت أبي.

فغر فاه، وانعقد لسانه، لا يدري ما أصابها.

- «ما الذي كدر خاطرك»؟!..

حدجته بنظرة فاحصة متخابثة تفضح سرها الدفين.

- لم أعد جديرة بحبك فاذهب لتأتي بزوجة رشيقة تناسبك.

قطّب جبينه حتى باتت غضونه واضحة.. يتذكر، يقلب كلامها في ذاكرته، يربط الأشياء ببعضها حتى انفجر ضاحكاً، قهقه ملء شدقيه. اغتاظت تود لو تصفعه! لو تهوي عليه بشيء ثقيل وتحطم رأسه المتعجرف.. ووو...

ما الذي يضحكك؟!

عرف انزعاجها منذ ليلة أمس وفهم القصد لقد استدارت في نومتها الى الناحية الأخرى وصفحة ظهرها تلهب خدي صفعاً..

اقترب منها، حاول أن يضمها، لكنها دفعته بقوة..

- .. منذ سنوات وأنا أحتمل.. قاطعها قبل أن تكمل حديثها.. أدخل أصابعه في جيبه واستخرج ورقة صغيرة قائلاً:

«أنظري ما اشتريت لك؟».

حـدقـت بـه طـويـلاً . . هـدأت كـأن علـى رأسهـا الطيـر مشدوهة، التقطت الورقة لتقرأها :

«جهاز جري بسعر ٢٨٠ دينار».

قال وهو يربت على كتفها بحنان.

«أنت تهمينني كثيراً، وحبي لك فوق كل اللغات وان لم تسعفني الكلمات فهناك المواقف التي تترجم مشاعري بصدق فمنذ مدة وأنا أفكر بهذا الأمر، يهمني ان تستعيدي رشاقتك، وقد أعددت لك هذه المفاجأة».

خجلت، تورد وجهها، أطرقت برأسها الى الأرض، ماتت الكلمات على شفتيها . .

رمقته بنظرة فاحصة فيها تساؤل ودلال.

ـ والممثلة؟

ابتسم واثقاً.

ـ صدقيني كانت معالم جسدها تشبه جسدك منذ تزوجتك قبل سنوات وكنت أرى هذا التشابه كبيراً. ابتلعت ريقها . . لقد أخرستها قناعته وحواره الهادىء. استطردت وهي تنسحب أمامه مطرقة.

ـ سأعد لك الغداء حالاً.

ليلى تبكي حريتها

منذ متى رفض هذا الطير الطعام.. منذ أيام لم أسمع تغريده الجميل.. شئت أن أتساءل وأنا أحدق به هذا الصباح، لم يكن يعرف أن غناءه يبعث في نفسي نشوة عجيبة تتسلل خلسة الى كل كياني.

لقد هشم طفلي قفصه الخشبي فاستعضت عنه بآخر أجمل وأبهى، والخادمة تقدم له كل يوم لذيذ الطعام والشراب، ربما ألمت به وعكة صحية طارئة.. الأمر لا يحتمل كل هذه التبريرات تناولت ليلى فطورها ثم استقلت سيارتها في طريقها الى المجلة، تذكرت أن عليها تقديم المقابلة الأخيرة التي أجرتها مع مدير المستشفى في قالب منسق ومتكامل، ضمن مفردات مثيرة.. وستقوم هذا المساء بتغطية المهرجان الاعلامي الكبير في أحد المسارح، أشياء كثيرة في الذاكرة

تترنح في مخيلتها دون طعم أو نكهة تستشعرها في نفسها.

لقد جاءت الى هذه المجلة وطموحها فورة مشتعلة لا تخبو.. لقد أحبت الصحافة حباً مفرطاً، شيء من التودد يتوهج في ذاتها، الى تلك الأسماء اللامعة التي حققت شيئاً عريقاً فيما مضى.

هاجسها الأول كان إحياء قضايا إنسانية ظنها الناس هامشية لا قيمة لها وهي ترتجي عبر قلمها المسكين لملمة هذه الأفكار المبعثرة لتدفع بحقوق المجهولين الى قمم الجبال وعندما وقفت على أول الطريق استنزفها الوقت والجهد والروتين، فدفنت طموحها في صندوق ألعابها الصغيرة ثم قذفته في البحر وبقيت أهدافها الفتية عالقة في الذاكرة تستنطقها كل يوم عبر نشيج حزين يدغدغ أوصالها.

وقفت أمام رئيس التحرير كما اعتادت فيما مضى ولهاثها يتصاعد في احتداد:

ـ أستاذ أحمد، هناك اضطراب في كلية الحقوق و...

قاطعها متذمراً، يهز رأسه ساخراً:

ـ ليلى عزيزتي هذه الأمور لا تعنينا، انني أريد حدثاً يهز المجتمع.

وفي خيبة متذبذبة في لسان أنهكته المقاومة قالت:

ـ أظن هذا حدثاً مهماً!

حدق رئيس التحرير بوجهها طويلاً وثمة سحابة من الضيق ترتسم على محياها، استطرد. .

ـ هلا سمعت عن قصة العلاقة الغرامية بين أحد أساتذة الآداب وطالبته، انها حديث الموسم الآن. . يقولون إن زوجة الأستاذ اتصلت بذوي الطالبة ثم حدثت مشادة عنيفة بين الطرفين!

بدت ليلى مشدوهة.

ـ لكني لم أسمع بهذه القصة إلا من حضرتك. . أشار اليها وعيناه تتقصيان إحدى الأوراق. .

ـ ابحثي في هذا الأمر، انها «خبطة» صحفية عظيمة.

فهمت محاولاته الصادة وهو يحتال بأكذوبة صغيرة ليفهم الطرف الآخر ان المقابلة قد انتهت فهو مشغول في أوراقه وعليك أن تتلقى الأمر دون اعتراض لتمضي الى غايتك.

استدارت ليلى وكأن الدنيا تدور في رأسها. . اخفقت في محاورته كالعادة. . لقد اجتازت مدير التحرير وكل المسؤولين في طريقها لتقف وجهاً لوجه أمام القوة المهيمنة على فكرها وعقيدتها، بيد أنه استهان بها وأخرس كل آمالها.

هذه الاحباطات المتراكمة في صدرها، ستتحول في يوم

مـا الـى لغـم شـرس يفجـر كـل أحـلامهـا السـراب. مـا زال فـي وجدانها شيء من المشاعر المرهفة التي تتحسس مواطن الضعف في الناس حينما تراهم في بصيرتها، وتود رغماً عنها تهذيب هذا الولد المتغطرس الذي يبتلع كل يوم هماً جديداً ويقذفه مع الفضلات.

هوَت على كرسيها متأففة، مطرقة.. تجتر مرارتها في اضطراب والغيظ ينهب نفسها نهباً، تخط فوق ورقة بيضاء خطوطاً متعرجة.. متشابكة.. تلعن فيها حظها العاثر. لأن صوتها يغيب ويتلاشى بين تلك الأصوات العملاقة التي تتشدق بأفكار مستهلكة لا غاية منها ولا رجاء. بيد أنها مستسلمة لقدرها، تقوم بواجباتها كل يوم تجتاز حيرتها وقيودها لتنطلق هنا وهناك حيثما توجهها إرادة الآخرين طلبت من الفرّاش كوباً من الشاي، تستطرد في شرود:

«ما هذا الذي أنا فيه، أشعر بقيد سقيم يجثم على صدري ويذيب كل معاني الحياة الجميلة، هل جئت لأكسب أجراً مادياً من جهدي هذا؟! اني مخلوقة حرة، أتوق أن أطير في دنياي الواسعة لأقطف الثمار.. روابي الحياة وأحولها إلى قضية إنسانية من خلال تفاعلي وأحاسيسي بها، لقد أخذوا هتاف عقلي وحولوه الى قناة فارغة من الداخل تتلقى وتعطي دون استيعاب او تحليل، هامشية باهتة فقط، ما أشقاني وأنا أبعثر حروفي دون اقتناع. أكاد أنفجر يا إلهي ففي داخل كل منا حلم

صغير قد داعبه حينما ألف الحياة، وابتسم لها ابتسامة فاترة ساذجة وكبر هذا الحلم لينضج مع الزمن ليتحول الى غاية تشد الانسان بحبال العزيمة والقوة لتقهر كل ما هو صعب ومستحيل، فأراني أدور في دائرة ضيقة محكمة رغم هذه البهرجة البراقة التي تبهر الانسان بلمعتها، جرح ينغمر في الذات وينغمس في سجن كبير لا يمكنني تحطيمه».

انتبهت الى الفرّاش يضع فوق المكتب كوب الشاي طأطأت بوجهها أرضاً. . تحس بتمحور في نقطة واحدة، القيد الفكري الذي يعذب كالسوط في ذات الانسان الذي يحمي كرامته وشرفه. . لا رأي لا قرار، ثم لا اختيار!

شربت الشاي، ولملمت أوراقها المبعثرة، ما زالت تعيش في دائرة محكمة لا تستطيع التسلل منها، هناك المهرجان الكبير في انتظار ضحكتها الساخرة، وأصابعها المرتجفة التي تتغنى كل يوم بأنشودة النفاق!

تود لو تستطيع أن تقطع أجزاءها ضمن محتويات مختلفة، حس مجرد، روح هائمة، عقل غائب، وقلب محطم، تمر أطياف المهرجان بأضوائها المتراقصة كعرائس الأحلام وتعبث في مخيلتها صور أخرى نقيضة لهذه الألوان، اللون الأسود القاتم حينما يفتقد مباهج الحياة، فتيات كالدمى يتهادين في تغنج تسترهن أثواب باهتة، تشنجت ليلى في وقفتها، فالقلم قد جف مداده، ولم يستطع يراعها الذعور أن

يكتب إلا خلجات مفتعلة، تناهت الى ذهنها خاطرة، فلتحاول أن تمزج الحقيقة بالكذب وتضفي شيئاً من الحماسة المحمومة لتخدع، هكذا هم يراوغون ويخدعون حتى تصل الحقيقة مزوقة تستثير فضول الناس وتشبع نهمهم المروع.

كانت الساعة قد شارفت على التاسعة مساء، وعودتها الى البيت أمر رائع تستعذبه وتنتظره بشوق ولهفة، فزوجها الحنون في انتظارها وطفلها الوديع يقفز برشاقة بين ربوع البيت. ثم خادمتها الطيبة التي تملك ثغراً باسماً هناك تتجسد حقيقة الحرية الأصيلة حيث تتنهد بأنفاس هادئة وتستنشق هواء نقياً لا تضطر فيه الى التزلف والتشدق بألفاظ متشنجة وعبارات ضخمة.. فلغتها صادقة.. تمتماتها ساذجة. طيعة تجتاز بها مرارة عملها الصحفي.

وعندما التقت ابنها الصغير تسمرت خائفة.. علامات غريبة ترتسم على محياه الوديع.. يقف منكس الرأس وعيناه تنطقان هما غريباً، احتضنته مشدوهة ما بك يا عزيزي؟

دمعت عيناه: لقد مات العصفور!

ضمته الى صدرها هامسة «فداك يا حبيبي».

انطلقت مذعورة الى القفص لتجد العصفور متكئاً على وجهه في إغفاءة طويلة وكل جسده الصغير مبعثر في ارتخاء حزين. هكذا إذن كان صمتك الطويل إنذاراً بالموت، إلتفتت

الى صوت الخادمة قائلة الطيور يا سيدتي لا تحتمل القيد رغم وسائل الراحة المتاحة لها، لقد كان حزيناً وبقي يكبت إحساسه بالقيد حتى مات. هزت ليلى رأسها في غرابة شديدة تجرّ مراراتها من أعماق روحها وفي قلبها يهتف إحساس غريب، الطير الذي لا يملك عقل الإنسان كابد حزنه حتى مات وأنا المخلوقة العاقلة ما زلت أعاني الضغط طويلاً دون اتخاذ قرار لحرية فكري، ربما تموت أحلامي وهي تتعثر ببصيص أمل واهٍ ثم تخمد مع الأيام حينما يقطع الواقع عليها الطريق فاعتاد مسيرتي واستطعم نكهة القهر لتصب في دمي كالقدر يمضي في عمري ولا أستطيع الخلاص.. لا.. لا بد أن أقولها ملء فمي.. لا بد أن أتحرر.. غداً سأتخذ قراري.. حتى وان قالوا عني انهزامية.

الفهرس